

التفسيه الخوارزمي

obeikandi.com

التفسير الخوارجي

يذكر الدكتور محمد حسين الذهبي، رحمه الله، في كتابه: " التفسير والمفسرون " لَدُنْ حديثه عن كتب تفسير القرآن التي خلفها لنا الخوارج، أن التفاسير الخوارجية قليلة، وأنه عِلْمٌ، أثناء إعدادهِ بَحْثُهُ الْآنْفَ الذَّكْرَ، بأسماء أربعة مفسرين منهم فقط هم هود بن محكم الهواري وعبد الرحمن بن رستم الفارسي ويوسف بن إبراهيم الوريثاني ومحمد بن يوسف إِطْفَيْش، وإن لم يصل من مؤلفاتهم إلا إلى تفسير " هميان الزاد إلى دار المعاد " للأخير، الذي له إلى جانب هذا التفسير تفسيران آخران أحدهما أكبر منه، لكنه لم يَتِمَّ، والآخر تَمَّ لكنه أصغر. أما أنا فقد وقَع تحت يدي ثلاثة تفاسير خوارجية إباضية هي " تفسير كتاب الله العزيز " لهُود الهواري و " هميان الزاد " لإِطْفَيْش، و " جواهر التفسير " للخليلي، وذلك في موقع " التفسير: www.altafsir.com " التابع لمؤسسة " أهل البيت " الملكية الأردنية. وقد نظرت في التفسير الأول، وصاحبُه من أهل القرن الثالث الهجري، فوجدته موجزا في كثير من المواضع بحيث لا يتضح اتجاهه المذهبي في تفسيره لكثير من الآيات. فمثلا تتبعت عددا من الآيات التي تقرر أن الهداية والإضلال إنما هما من الله، وعددا آخر من تلك التي تؤكد أنه سبحانه وتعالى خالق كل شيء، فلم أجد مفسرنا قال فيها شيئا خاصا. حتى مسألة رؤية الله لم أراه أولاها اهتماما يُذكر رغم توفر المناسبات المتعلقة بها، اللهم إلا في قوله تعالى: ﴿وَجُودُ بِؤْمِرٍ مُّطَافٍ ۚ﴾ (٣٢) إِلَى

رَبَّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾ { [القيامة: ٢٢ - ٢٣]، حيث كتب ما يلي: " قال عز وجل: {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ} أي: ناعمة {إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ} أي: تنتظر الثواب، وهي وجوه المؤمنين. وحدثني مسلم الواسطي قال: سمعت أبا صالح يقول في قوله: {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ} ﴿٢٣﴾ إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ قال: تنتظر الثواب من ربها. قال أبو صالح: ما رآه أحد ولا يراه أحد"، وهو واضح الدلالة على أنه يعتقد أن رؤية الله مستحيلة دنيا وأخرى استحالة مطلقة لا مثنوية فيها.

أما في ارتكاب الخطيئة فقد كان الأمر مختلفاً، إذ تناول ذلك الموضوع عدة مرات منها مثلاً ما كتبه في تفسير الآية ٨١ من سورة "البقرة"، ونصه: {بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً} [البقرة: ٨١]: يعني الشرك، {وَأَحْطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ} [البقرة: ٨١] ثم مات ولم يتب منه {فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٨١]، وهذا كل ما هنالك، وإن كان اعتقاده فيما يخص صاحب الكبيرة واضحاً، وهو أنه ما لم يتب فإن مصيره النار طبقاً لما جاء في الآية. بيد أنه لم يقل شيئاً يميزه عن غيره من أصحاب المذاهب الأخرى، إذ لم يكذب يقول غير ما تقوله الآية. لكنه، حين تناول قوله تعالى في الآية رقم ٣٧ من سورة "النجم"، قد فصل القول فيه، وإن لم يفصل في تبيان رأيه، بل اكتفى بمحاولة تعداد الكبائر وما يكتنفها من اختلاف، مع إبراز وجوب التوبة إن أراد مرتكبها غفرانا لذنبه. قال: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ

أَنْتُمْ أَجْنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم: ٣٢]. قوله: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ}: ذكروا عن عبد الله بن

مسعود أنه قال: الكبائر من أول سورة " النساء " إلى رأس الثلاثين. قال عز وجل: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} [النساء: ٣١]. ذكروا عن يحيى بن أبي كثير قال: قال رسول الله ﷺ: «الكبائر تسع: الإشرak بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وعقوق الوالدين المسلمين، وقذف المُحْصَنَات، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والسحر، والفرار من الزحف، واستحلال البيت الحرام قبلتكم التي تَوَجَّهون إليها». ذكروا عن الحسن قال: كان الفرار من الزحف يوم بدر من الكبائر خاصة. قال بعضهم: يحدثون أن الفرار من الزحف يوم ملحمة الروم الكبرى من الكبائر لأن المسلمين مجتمعون يومئذ كما كانوا يوم بدر. ذكروا عن الحسن قال: ذُكِرَت الكبائر عند النبي ﷺ فقال: «أين تجعلون اليمين الغموس؟» ذكروا عن عوف قال: مر بنا أبو العالية الرياحي فقال: اتقوا كبائرَ تسعًا، إني أراها تسعًا وتسعًا وتسعًا، حتى عدَّ أربعين أو أكثر. غير واحد من العلماء المأخوذ عنهم والمقبول منهم قال: كل ما أوجب الله عليه الحد في الدنيا وأوعد عليه وعيدًا في الآخرة فهو كبيرة. وقال: وكل ما عذب الله عليه عذابًا في الدنيا أو في الآخرة فليس بصغيرة. ذكروا عن قيس بن سعد أن ابن عباس قال: كل ذنب تاب منه العبد فليس بكبيرة، وكل ذنب أقام عليه العبد حتى يموت فهو كبيرة. وقال بعضهم: كان يقال: لا قليل مع الإصرار، ولا كبير مع توبة واستغفار، والاستغفار مكنسة للذنوب. وقوله عز وجل: {اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ} [البقرة: ١٩٩] أي: لا تعودوا. تأويل هذا الحديث: إذا كان ذنبٌ فيما بين العبد وبين الله فالتوبة إلى الله والاستغفار يجزيانه باللسان. وإن كان ذنبٌ فيما بينه وبين الناس من القتل

وذهب الأموال فلا يجزيه إلا القود من نفسه والانتصال من أموال الناس إذا كان يقدر على رد أموالهم. ذكروا عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه يوماً: " ما تعدون الزنا والسرقه وشرب الخمر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: كبائر وفواحش، وفيهن العقوبة. ثم قال: أكبر الكبائر الإشرار بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بحقها، وعقوق الوالدين. وكان متكئاً فجلس، ثم قال: ألا وقول الزور، ألا وقول الزور، ألا وإن لكل غادر لواءٌ يُعرف به يوم القيامة بقدر غدرته يُركز عند مقعده. ألا ولا غدره أكبر من غدره أمير عامة ". ذكروا عن سعيد مولى ابن عباس أنه ذُكرت عنده الخمر فقال: ليست من الكبائر. فقال ابن عباس: بل هي أكبر الكبائر. إنه إذا شرب زنى وفعل وفعل. وقوله عز وجل: {إِلَّا اللَّمَمُ} [النجم: ٣٢] : ذكروا عن عكرمة قال: ما دون الحدين. كل ذنب ليس فيه حد في الدنيا ولا عذاب في الآخرة فهو اللمم. وقال الحسن: اللمم ما يُلَمُّ به من الزنا والسرقه وشرب الخمر ثم لا يعود. تأويل حديث الحسن: أن يُلَمُّ بشيء من هذا أن يفعله ولا يفعله ثم لا يعود أن يُلَمُّ به. ذكروا عن أبي هريرة في اللمم أنه قال: العين تزني، وزناها النظر. واليد تزني، وزناها اللمس. والرجل تزني، وزناها المشي. والنفس تهوى وتحديث، ويصدق ذلك ويكذبه الفرج. ذكروا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال: «كل بني آدم قد أصاب من الزنا لا محالة: فالعين تزني، وزناها النظر. واليد تزني، وزناها اللمس. والرجل تزني، وزناها المشي. والنفس تهوى وتحديث، ويصدق ذلك كله ويكذبه الفرج». ذكروا عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، كفارة لما بينهما ما اجْتَبَتِ الكبائر».

قوله عز وجل: {إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ} [النجم: ٣٢]، أي يغفر ما دون الكبائر، أي يكفرها بالصلوات الخمس. قال غير واحد من العلماء: إن ما دون الكبائر مكفّر محطوط، شرط من الله وثيق، وهو قوله: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} [النساء: ٣١]. فإن اجْتَنَبَتِ الكبائر كانت هذه السيئات مُكَفَّرَةً مغفورة محطوفة باجتناب الكبائر. ذكروا عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الصَّلَاةِ الْخَمْسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ عَلَى بَابِهِ هَرَجٌ جَارٌ عَذْبٌ يَنْغَمِسُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَمَاذَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ؟» وتفسير "دَرَنِهِ": إثمُهُ.

أما رأى الخليلي في تفسيره الذي لم يتم منه إلا تفسير "الفاتحة" وبعـ
 "البقرة" فهو أن وعيد الله لليهود في الآية ٨١ من سورة "البقرة" بأن من كسب منهم سيئة وأحاطت به خطيئته لا يبقى في النار أياما معدودة يخرج بعدها إلى النعيم كما زعموا بل هو مخلد فيها، هذا الوعيد ليس خاصا بهم، بل يعم كل خاطئ. قال: "ولا ينحصر هذا الوعيد في اليهود وحدهم، وإن كانوا السبب في نزول هذه الآيات، لأن الحكم العام لا ينحصر في سببه الخاص، وهو معنى قول الأصوليين: "لا عبرة بخصوص السبب مع عموم اللفظ". وكثير من هذه الأمة راقى لهم، مع الأسف الشديد، هذه العقيدة التي سرت إليهم من الأفكار اليهودية البحتة، فأخذوا يؤولون الآيات الوعيدية تأويلا بعيدا عن مدلولها البين، ويحرفون معانيها حتى تتفق مع معتقداتهم المخالفة للنصوص الجلية، فحصرُوا السيئة هنا في الشرك مع فقدان أي قرينة شرعية أو وضعية تقيد إطلاقها

إلا ما توهموه من أن قوله تعالى: {وَأَحْطَطَ بِهِ خَطِيئَتُهُ} [البقرة: ٨١] يدل على ما ذهبوا إليه. والحقيقة عكس ما قالوه كما سيأتيكم بيانه. ومما يضاعف الأسف أن يتتابع الجم الغفير من الناس، ومن بينهم علماء نابهون، على تلقي هذه الفكرة بالقبول من غير تمحيص لها والنظر في مصدرها، والرجوع بها إلى الأدلة الظاهرة من الكتاب العزيز والسنة الصحيحة الثابتة. فقد أخذ اللاحق يتبع فيها أثر سابقه من غير تبصر وروية حتى إنهم أخذوا يشنعون على مخالفهم فيها، ويكيلون لهم التهم كيلا، اللهم الا الذين ارتقوا عن حضيض التقليد وسموا إلى ذروة التحقيق فأبصروا الحقيقة الناصعة، قلم يستحيوا من تجليتها للمبصرين بأقلامهم المتحررة من أسر التقليد البغيض.

ومن بين هؤلاء الإمام محمد عبده القائل في هذه الآية: " السيئة هنا على إطلاقها، وخصها مفسرنا الجلال وبعض المفسرين بالشرك. ولو صح هذا لما كان لقوله تعالى: {وَأَحْطَطَ بِهِ خَطِيئَتُهُ} [البقرة: ٨١] معنى، فإن الشرك أكبر السيئات، وهو يستحق هذا الوعيد لذاته كيفما كان. ومعنى إحاطة الخطيئة هو حصرها لصاحبها، وأخذها بجوانب إحساسه ووجدانه، كأنه محبوس فيها لا يجد لنفسه مخرجا منها. يرى نفسه حرا مطلقا، وهو أسير الشهوات وسجين الموبقات ورهين الظلمات. وإنما تكون الإحاطة بالاسترسال في الذنوب، والتمادي على الإصرار، قال تعالى: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: ١٤]، أي من الخطايا والسيئات. ففي كلمة {يَكْسِبُونَ} معنى الاسترسال والاستمرار. وران عليه: غطاه وستره. أي أن قلوبهم قد أصبحت في غُلفٍ من ظلمات المعاصي

حتى لم يبق منفذ للنور يدخل إليها منه. ومن أحدث لكل سيئة يقع فيها توبة نصوحا وإقلاعا صحيحا لا تحيط به الخطايا ولا ترين على قلبه السيئات. روى أحمد والترمذي والحاكم وصحاحه وابن ماجة وابن حبان وغيرهم من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نَكْةٌ سَوْدَاءُ: فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صَقَلَ قَلْبَهُ، وَإِنْ عَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُو قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الرِّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: ١٤]».

وقال أيضا: "ومن المفسرين من ترك السيئة في الآية على إطلاقها ولم يؤولها بالشرك ولكنهم أولوا جزاءها فقالوا: إن المراد بالخلود طول مدة المكث، لأن المؤمن لا يخلد في النار، وإن استغرقت المعاصي عمره وأحاطت الخطايا بنفسه فأنهمك فيها طول حياته. أولوا هذا التأويل هروبا من قول المعتزلة: "إن أصحاب الكبائر يخلدون في النار"، وتأبيدا لمذهبهم أنفسهم المخالف للمعتزلة. والقرآن فوق المذاهب يرشد إلى أن من تحيط به خطيئته لا يكون أو لا يبقى مؤمنا. وأتبع تلميذه العلامة السيد رشيد رضا كلامه هذا بيان ما يترتب على تأويل الخلود من القول بعدم خلود المشركين أيضا في النار. وإليك نص قوله: "إن فتح باب تأويل الخلود يجرئ أصحاب استقلال الفكر في هذا الزمان على الدخول فيه والقول بأن معنى خلود الكافرين في العذاب طول مكثهم فيه لأن الرحمن الرحيم الذي سبقت رحمته غضبه ما كان ليعذب بعض خلقه عذابا لا نهاية له لأنهم لم يهتدوا بالدين الذي شرعه لمنفعتهم لا لمنفعته، ولكنهم لم يفقهوا المنفعة. وإذا كان التقليد مقبولا عند الله كما يرى فاتحو الباب، فقد

وضح عذر الأكثرين لأنهم مقلدون لعلمائهم... إلى آخر ما يتكلم به الناس، ولا سيما في هذا العصر. فإن هذه المسألة قديمة، وهي أكبر مشكلات الدين. نعم إن العلماء يحتجون عليهم بالإجماع ولو سكوتيا، ولكن التأويل باب لا يكاد يسده، متى قُتِح، شيء.

وتعضد التأويل الصحيح الذي ذكرته من قبل، آثارٌ مروية عن السلف في تفسير " الخطيئة " وإحاطتها: فعن الحسن البصري أن رجلا سأل عن قوله: {وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ} [البقرة: ٨١] فقال: ما تدري ما الخطيئة يا بني؟ أتُل القرآن، فكل آية وعد الله عليها النار فهي الخطيئة. أخرجه ابن جرير. وأخرج عن سعيد عن قتادة أنه قال: أما الخطيئة فالكبيرة الموجبة. وعن عبد الرزاق عن قتادة أنه قال: الخطيئة الكبائر. وعن مجاهد أنه قال: كل ذنب محيط فهو ما وعد الله عليه النار. وعن الضحاك أنه قال في إحاطة الخطيئة: الموت عليها. ومثله عن الربيع بين خيثم. وعن الربيع أيضا أنه قال في الخطيئة: الكبيرة الموجبة. وعن السدي أنه قال: " أحاطت به خطيئته " فمات ولم يتب. وعن أبي رزين أنه قال: " أحاطت به خطيئته " مات بخطيئته. أخرج هذه الآثار ابن جرير الطبري، ولا يمكن رد هذه الأقوال أو تأويلها بما يخالف ظاهرها لأجل روايات أخرى معزوة إلى بعض السلف، إذ ليس ما وافق القرآن والسنة كالذي خالفهما. ونصوص الكتاب العزيز والسنة الصحيحة قاضية بتعذيب أهل الكبائر وتخليدهم في العذاب، وحسبكم حجة على صحة هذا التفسير للسيئة وإحاطتها حديث الران السالف الذكر.

وإذا كانت عقيدة توقيت عذاب الآخرة جرأت اليهود على ما جرأتهم

عليه من نَبَذَ الْكِتَابَ وانتهاك الحرمات وتعدي الحدود، فإن الذين تلقفوها عنهم من هذه الأمة أخذوا بحظ وافر من ذلك كله. فكم من حرمة ارتكبت، ومحرمة أبيحت، وحقيقة طُمِست تحت مظلة اعتقاد العفو عن أهل الكبائر بعدم دخول النار مطلقاً أو تعذيبهم عذاباً مؤقتاً ينقلبون بعده إلى النعيم المقيم فيتساوون مع البررة المتقين في المنزلة والثواب. فيا الله من هذه المصيبة في الدين! أين عقول هؤلاء من قوله تعالى: {أَرْجِعْهُمُ إِلَى اللَّهِ أَمْسُوا وَعْمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَرْجِعْهُمُ إِلَى اللَّهِ كَالْفَجَارِ} [ص: ٢٨].

لكنني كنت أود لو وقف هؤلاء المفسرون إزاء الحديث التالي، وهو "أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تضارون في القمر ليلة البدر؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فإنكم تروونه كذلك». يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شئنا فليتبعه. فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها شافعوها، أو منافقوها (شك إبراهيم)، فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاءنا ربنا عرفناه. فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: أنت ربنا. فيتبعونه، ويضرب الصراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجيزها، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم، سَلِّمْ سَلِّمْ. وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان. هل رأيتم السعدان؟ قالوا: نعم يا رسول

الله. قال: فإنها مثل شوك السعدان، غير أنه لا يعلم ما قَدَّرَ عِظَمُهَا إِلَّا اللهُ. تخطف الناس بأعمالهم: فمنهم المؤمن يبقى بعمله، أو الموبق بعمله أو الموثق بعمله، ومنهم المخردل أو المجازى أو نحوه. ثم يتجلى، حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يُخْرِجَ برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يُخْرِجُوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ممن أراد الله أن يرحمه ممن يشهد ألا إله إلا الله. فيعرفونهم في النار بأثر السجود. تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود. حرَّم الله على النار أن تأكل أثر السجود. فيخرجون من النار قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون تحته كما تنبت الحبة في حميل السيل. ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار، هو آخر أهل النار دخولا الجنة، فيقول: أي رب، اصرف وجهي عن النار، فإنه قد قشبنى ريحها، وأحرقني ذكاؤها. فيدعو الله بما شاء أن يدعو، ثم يقول الله: هل عَسَيْتَ، إن أُعْطِيتَ ذلك، أن تسألني غيره؟ فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره. ويعطي ربه من عهود ومواريث ما شاء. فيصرف الله وجهه عن النار. فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أي رب، قدَّمْني إلى باب الجنة. فيقول الله له: ألسنت قد أعطيت عهدك ومواريثك ألا تسألني غير الذي أُعْطِيتَ أبداً؟ ويلك يا ابن آدم! ما أغدرك! فيقول: أي رب. ويدعو الله حتى يقول: هل عَسَيْتَ، إن أُعْطِيتَ ذلك، أن تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره. ويعطي ما شاء من عهود ومواريث، فيقدمه إلى باب الجنة. فإذا قام إلى باب الجنة انفهقت له الجنة، فرأى ما فيها من الحبرة والسرور، فيسكت ما شاء الله أن يسكت، ثم

يقول: أي رب، أدخلني الجنة. فيقول الله: أليس قد أعطيت عهدك ومواثيقك ألا تسأل غير ما أُعْطِيتَ؟ فيقول: ويلك يا ابن آدم! ما أغدرك! فيقول: أي رب، لا أكونن أشقى خلقك. فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه، فإذا ضحك منه قال له: ادخل الجنة. فإذا دخلها قال الله له: تمَنَّهُ. فسأل ربه وتمنى، حتى إن الله ليذكره، يقول: كذا وكذا، حتى انقطعت به الأماني. قال الله: "ذلك لك، ومثله معه". قال عطاء بن يزيد: وأبو سعيد الخدري مع أبي هريرة، لا يرد عليه من حديثه شيئا، حتى إذا حثَّ أبو هريرة: أن الله تبارك وتعالى قال: "ذلك لك، ومثله معه" قال أبو سعيد الخدري: "وعشرة أمثاله معه" يا أبا هريرة. قال أبو هريرة: ما حفظت إلا قوله: "ذلك لك، ومثله معه". قال أبو سعيد الخدري: أشهد أنني حفظت من رسول الله ﷺ قوله: «ذلك لك، وعشرة أمثاله». قال أبو هريرة: فذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولا الجنة.

ورأى ألا تنساق في الإكثار من الجدل في مثل تلك القضايا، لأن الجنة والنار هما من شأن الله عز شأنه، فلنترك الأمر لصاحب الأمر ولا نتخط حدودنا ولنس قدرنا. والله رحيم كريم لطيف بعباده، خلقهم ضعفاء، وأحاطهم بما لا يحصى من البواعث والمغريات والمؤثرات. وهو سبحانه يعرف ظروف كل إنسان ومقدار طاقته وتحمله وحقيقة نيته. لهذا كله لا أريد أن أمضى في علاج تلك المسألة أكثر من هذا، ولكني دائما طامع في رحمته راجٍ عفوه وغفرانه أملٌ فيه كل خير. ولا أظنه إلا عند حسن ظن عباده به سبحانه جل وعلا. وأنا أرتاح عقلا ونفسا إلى ذلك الحديث، وأعده من دلائل عظمة الإسلام، فهو دين يحنو على الضعف البشري ولا

يتلذذ بإقامة المشائق والمجازر للمخطئين، وكل عقاب لا بد له من حد ينتهى إليه، وإلا فأين رحمة الله وكرمه وحنؤه وعطفه على عباده؟ أليست رحمته تسبق دائما غضبه؟ وقد أكون بعد هذا كله مخطئا، لكننى لا أريد إلا الحق والخير، وليغفر الله لى زللى إن كنت زلت. إنما هو الطمع فى رحمة الله والإحساس الشديد بالضعف البشرى، ذلك الضعف الذى قررته الآية الكريمة التالية: {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: ٢٨].

وقد أعجبني رد بعض العلماء، وهو الشيخ حمود بن عقلاء الشيعي، على سؤال خاص بمدى صحة القول بفناء النار، وهذا نص ما قاله، ويجده القارئ فى موقع "المسك الأذفر: www.athfer.com". قال: " فإن هذه المسألة قد بُحِثَتْ وَقِيَّتْ بحثاً منذ عصر الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وأئمة الهدى والدين وعلماء سلف الأمة المتقدمين منهم والمتأخرين. اختلف السلف فيها على قولين على ضوء ما جاء فى الكتاب والسنة: القول الأول عليه جمهور سلف الأمة، وهو خلود النار ودوامها وعدم فنائها. القول الثانى لبعض السلف، وهو أن النار تبقى أحقاباً ثم تبنى ويخرج منها أهلها إذا تهذبوا وتطهروا وزال عنهم درن الكفر بما ذاقوه من العذاب. وكل من القولين ماثور عن السلف، ويُنظر فى أدلة الفريقين، فأيهما كان أقوى دلالة كان هو القول الراجح. فأما القول الأول، وهو قول الجمهور، فمن أدلته قوله تعالى: {وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ} [الحجر: ٤٨]، وقوله تعالى: {إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} [الفرقان: ٦٥]، أي ملازماً دائماً، وقوله تعالى: {وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [البقرة: ١٦٧]، وقوله تعالى: {لَا يَفْرُغُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ} [الزخرف: ٧٥]، وقوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [النساء: ٢٨].

[٥٧]، وقوله تعالى: {وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ} [الأعراف: ٤٠]. أما القائلون بفناء النار فمن أدلتهم قوله تعالى: {قَالَ النَّارُ مَثْوٍ لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام: ٢٨]، وقوله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ} [١٦] خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} [١٧] {هود: ١٠٦-١٠٧}. وجه الدلالة من الآيتين أنه لم يأت بعد الاستثناء ما يدل على دوام النار كما جاء في شأن الجنة مما يدل على دوامها في قوله تعالى: {عَطَاءٌ غَيْرٌ يُجْذَوْنَ} [هود: ١٠٨]، فدل على أن النار تفتنى، والجنة نعيمها دائم لا ينقطع، وقوله تعالى: {لَيْسَ فِيهَا أَحْقَابًا} [٢٣] {التبا: ٢٣} : وجه الاستدلال من الآية أن الأحقاب أوقات معدودة محصورة لا بد لها من نهاية. كما استدلوا بأثار عن الصحابة كأبي هريرة وابن مسعود وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك وقت يخرجون فيه. قالوا: ومن حيث المعنى فإن عذاب الكفار مراد بالعرض، ونعيم الجنة مراد لذاته. فما كان مرادا بالعرض فإنه ينتهي بانتهاء ذلك العرض، وما كان مرادا لذاته فإنه يدوم ولا ينقطع. ومعنى مراد بالعرض يعني أن تعذيبهم عرض لأجل كفرهم. فإذا نُقُوا وتطهروا بالعذاب زال عنهم درن الكفر فأصبح تعذيبهم لا حكمة فيه... إلى غير ذلك مما لم يُذَكَّر. فإذا كان الأمر كذلك، أعني أن المسألة فيها قولان للسلف، فمن اجتهد وهو من أهل الاجتهاد وأخذ بأحد القولين فإنه لا يُنكَر عليه ولا يضلُّ ولا يبدع، لأن السب والتجريح وتضليل الآخرين، وهم ليسوا كذلك، فيه إثم ومعصية، ويترتب عليه الاختلاف والفرقة التي نهى

الله عباده عنها". ويرى الشيخ شلتوت (في كتابه: "العقيدة والشرعية في الإسلام" أنه "ليس في القرآن نص صريح في دوام النار، وإنما فيه التصريح بخلود الكفار فيها، وهو يتحقق بأنهم لا يخرجون منها ما دامت موجودة. وأما أنها تنقطع أو تدوم فهذا شيء آخر ليس في القرآن ما يقطع به" (ط. دار الشروق/ ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م/ ٤٣ - ٤٤).

وقد لاحظ الدكتور الذهبي في "التفسير والمفسرون" كذلك أن إطفيش، ونلاحظ أنه من أهل القرن الرابع عشر الهجري، لذن تفسيره للآية ٣٥ من سورة "النساء"، وهي الآية الخاصة بالتحكيم بين الزوجين المتنازعين، يؤكد أنه لا دليل في الآية على جواز التحكيم إذا ظهر الحق. يريد أن يقول إنه لمن الواضح بمكان أن الحق في الخلاف بين علي ومعاوية كان في صف علي، فكان يجب على ابن أبي طالب أن يرفضه. أما الهواري فكان موقفه مختلفاً، إذ شرح دور الحكمين في هذا السياق ولم يتطرق إلى التحكيم بين علي ومعاوية، ولم ينكر من ثم على الأول قبوله ذلك التحكيم. بل إنه زاد فحتم كلامه بذكر ما قاله علي رضي الله عنه في مسألة التحكيم بين الزوجين المتنازعين، وهو أن من حق الحكمين أن يفرقا بين الزوجين إذا رأيا أن التفريق هو العلاج. وهذا نص كلامه: "وبلغنا عن علي بن أبي طالب أنه قال للحكمين: ذلك إليكما. إن رأيتما أن تفرقا ففرقا". أريد أن أقول إن الهواري لم يحاول النيل من علي، بل زاد فاستشهد بكلامه بما يدل على احترامه له وإجلاله لعلمه وفضله.

ونفس الشيء في تفسيره للآيتين ٩ - ١٠ من سورة "الحجرات"

الخاصتين بالإصلاح بين أى طائفتين مسلمتين تقتتلان، إذ لا نجد فيما قاله شيئاً يُشتمُّ منه من قريب أو من بعيد رائحة إساءة أو حتى انتقاد لعلّى كرم الله وجهه على عكس ما صنعه إطفيش، رغم أن الهوارى كان قريب عهد بعلّى وبأحداث الخلاف والقتال بينه وبين الخوارج بما كان حرياً أن يدفعه إلى تخطئة رأيه على الأقل. لكنه اكتفى بإيراد سبب النزول وتفسير الآية في ذاتها دون أن يسحبها على الخلاف بين على ومعوية أو بين على وجماعة الخوارج الذى ينتمى هو إليهم.

ويتضح الفرق بين المفسرين إذا ما قرأنا كلام إطفيش فى تفسير النصين المذكورين. قال فى نص سورة "النساء": "ولا دليل فى الآية على جواز التحكيم، لأن مسألة الحال إنما هى ليتحقق بالحكمين ما قد يخفى من حال الزوجين، بخلاف ما إذا ظهر بطلان إحدى الفرقتين بأن الله قد حكم بقتالها. وأيضاً المراد هنا: الإصلاح مثلاً لا مجرد بيان الحق". وفى نص سورة "الحجرات" يقول: "والإصلاح بالنصح والدعاء إلى حكم الله... وسمع علىّ رجلاً يقول فى ناحية المسجد: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله، ولا نمنعكم الفىء ما دامت أيديكم فى أيدينا، ولا نبدؤكم بقتال. قلت: الحق أنه إذا حكم الله بحكم فى مسألة فلا حكم لأحد فيها سواه، فالحق مع الرجل، ولو كان علىّ أعلم عالم". أما تفسير الخليلي، وهو تفسير موسع، فلم يتم منه إلا تفسير "الفتحة" وبعض "البقرة"، ومن ثم لا نستطيع أن نعرف رأيه فى هذه القضية. على أن هذا لا يعنى أننى أملئ للخاطئين فى خطيئاتهم، بل أؤكد أنه يجب على كل منا نحن البشر أن يبذل قصارى جهده وإخلاصه، وليترك الأمر

بعد ذلك في يد مولاہ، ولن يخيب الكريم الرحيم حينئذ ظنه.

كذلك لاحظ الدكتور الذهبي على إطفيش اهتباله كل فرصة للثناء على الخوارج والخط من شأن علي وعثمان كما صنع في تفسيره لقوله تعالى في الآيتين ١٠٥ - ١٠٦ من سورة آل عمران: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ {آل عمران: ١٠٥ - ١٠٦}، إذ يقول بحق: "إن أمر الحكمين لم يكن حين نزلت الآية، بل في إمارة علي. و{تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا} [آل عمران: ١٠٥] صيغتان ماضويتان، ولا دليل على صرفها للاستقبال، ولا على التعيين لمن ذكر". إلا أنه يجور عن القصد حين يزعم أن الآية قد دلت على "خلوص الخوارج من ذلك، وعلى أنهم المحقون الذين تَبَيَّضُ وجوههم، فمن خالفهم فهو داخل في قوله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} [آل عمران: ١٠٦]. وهو يَعْمُ كل مَنْ كفر بعد إيمانه. واعلم أنه قد خرج علي علي حين أذعن للحكومة صحابةً كثيرون رضى الله عنهم وتابعون كثيرون، فترى المخالفين يذمون ويشتمون مَنْ خرج عنه ويلعنونه غير الصحابة الذين خرجوا عنه. والخروج واحد: إما حق في حق الجميع، وإما باطل في حق الجميع. فإذا كان حقاً في جنب الكل، فكيف يشتمون مَنْ خرج عليه غير الصحابة؟ وإن كان باطلاً في جنب الكل، فقد استحق الصحابة الشتم أيضاً، عاقبهم الله. ونرى المخالفين يروون أحاديث لم تصح عن رسول الله ﷺ، وقد يصح الحديث ويزيدون فيه. وقد يصح ويؤولونه فينا وليس فينا".

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية ٣٩ من سورة " التوبة " : {لَا تَنْفِرُوا لِبِدِّكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَسَتَبَدَّلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} [التوبة: ٣٩] يقول: " عن عمران بن حصين أن نصارى العرب كتبت إلى هرقل: إن هذا الرجل الذي يدعى النبوة هلك وأصابتهم سنون فهلك أموالهم. فبعث رجلاً من عظمائهم وجهز معه أربعين ألفاً، فبلغ ذلك النبي ﷺ ولم يكن للناس قوة. وكان عثمان قد جهز عيراً إلى الشام، فقال: يا رسول الله، هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومائتا أوقية. قال صاحب المواهب: قال عمران بن حصين: فسمعتة يقول: «لا يضر عثمان ما عمل بعدها»، والعهد على القسطلاني وعمران، فإن صح ذلك فمعنى ذلك الدعاء له بالخير لا القطع بأنه من أهل الجنة. وعن عبد الرحمن بن سمرة: جاء عثمان بن عفان بألف دينار في كفه حين جهز جيش العسرة، فنثرها في حجره ﷺ، فرأيت رسول الله ﷺ يقلبها في حجره ويقول: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم». فإن صح هذا فذلك أيضاً دعاء. وإنما قلت ذلك لأخبار سوء وردت فيه عن رسول الله ﷺ .

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية ١٠٣ وما بعدها من سورة الكهف: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا} (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَبُخِشَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُنْقِصُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) [الكهف: ١٠٣-١٠٦] يقول: " وزعم على أنهم أهل حروراء، وهم المسلمون الذين خرجوا عنه لعدم رضاهم بالتحكيم فيما كان لله فيه حكم. وسأله ابن الكواء فقال: منهم حروراء. وسئل: أهم مشركون؟ فقال: لا. فقال:

أمنافقون؟ فقال: لا، بل إخواننا بَغَوْا علينا. وذلك خطأ تشهد به عبارته، لأنه ليس الإنسان إلا مؤمناً أو مشركاً أو منافقاً. فإذا انتفى الشرك والنفاق عن أهل حروراء فهم مؤمنون. والمؤمن لا يُوصف بالبغي وهو مؤمن، ومن بغي دخل في حدود النفاق. وأيضاً الباغي من يرى التحكيم فيما كان الله فيه حكماً، والسافك دماء من لم يتبعه على هذه الزلّة. وأيضاً أهل حروراء لم يكفروا بآيات الله ولا بلاقائه، بل مؤمنون بآيات الله وبالبعث. والأخسرون أعمالاً قد وصفهم الله سبحانه وتعالى بكفر الآيات واللقاء. ولست أقول ذلك معجباً بنفسى ولا متعجباً ممن عصى، بل حق ظهر لى فصرحتُ به ”.

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية ٥٥ من سورة ”النور“: {وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ اسْتَخْلَفْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ} [النور: ٥٥] يقول: ” قال المخالفون عن الضحاك: إن الذين آمنوا هم أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ، وإن استخلافهم إمامتهم العظمى. وسيأتى ما يدل على بطلان دخول عثمان وعليّ في ذلك... وفي أيام أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وبعدهم كانت الفتوح العظيمة وتمكين الدين لأهله، لكن لا دليل في ذلك على إصابة عثمان وعليّ ”. وعند تفسيره لقوله تعالى في آخر الآية السابقة: {وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور: ٥٥] يقول: ” أقول، والله أعلم بغيبه، إن أول من كفر بتلك النعمة وجحد حقها عثمان بن عفان: جعله المسلمون على أنفسهم وأموالهم، فخانهم في كل ذلك. زاد في مسجد رسول الله ﷺ وسَّعَهُ، وابتاع من قوم، وأبى آخرون فغصبيهم، فصاحوا به فسيّرهم للحبس، وقال: قد فعل بكم عمر هذا فلم تصيحوا به.

فكَلَّمَهُ فِيهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَالِدِ بْنِ أَسِيدٍ فَأَطْلَقَهُمْ مِنَ السَّجَنِ، وَقَدْ جُمِعَ فِي ذَلِكَ غَضَبُ الْمَالِ وَقُذِفَ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَاسْتَعْمَلَ أَخَاهُ لِأُمِّهِ، وَهُوَ الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ. وَنَزَلَ {وَأَتَقُوا فِتْنَةَ} [الأنفال: ٢٥] بِحَضْرَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ، فَقَالَ لِعُثْمَانَ: "بِكَ تُفْتَحُ وَبِكَ تُشَبَّ". وَقَالَ لِعَلِيٍّ: "أَنْتَ إِمَامُهَا وَزِمَامُهَا وَقَائِدُهَا. تَمْشِي فِيهَا مَشْيُ الْبَعِيرِ فِي قَيْدِهِ". وَقَالَ: "لَضُرْسُ بَعْضِ الْجُلُوسِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ أَعْظَمُ مِنْ جَبَلٍ أُخِذَ". وَقَالَ "يَتَوَرَّ دُخَانُهَا تَحْتَ قَدَمِي رَجُلٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ مِنِّي، وَلَيْسَ مِنِّي. أَلَا إِنْ أَوْلِيَايَ الْمُنْقَوْنَ".

وَعِنْدَ تَفْسِيرِهِ لِقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ ٢٣ مِنْ سُورَةِ "الشُّورَى": {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} [الشورى: ٢٣] يَقُولُ: "فَمَوَدَّةٌ قَرَابَتُهُ ﷺ مَنْ لَمْ يُبَدَّلْ مِنْهُمْ وَلَمْ يُغَيَّرْ، مِثْلُ فَاطِمَةَ وَحَمْزَةَ وَالْعَبَّاسَ وَابْنِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَاجِبَةٌ... لَكِنْ الْمُرَادُ بِآلِهِ: آلُهُ الَّذِينَ لَمْ يُبَدِّلُوا. فَخَرَجَ عَلِيٌّ وَنَحْوُهُ مِمَّنْ بَدَّلَ، فَإِنَّهُ قَتَلَ مَنْ قَالَ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ قَاتِلُهُ الْجَنَّةَ». وَلَمْ يَصَحَّ عِنْدَنَا مَعْشَرُ الْإِبَاضِيَّةِ رَوَايَةً أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ قِيلَ: مَنْ قَرَابَتِكَ الَّذِينَ تَجِبُ عَلَيْنَا مَوَدَّتَهُمْ؟ فَقَالَ: «عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَابْنَاهُمَا».

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْغُرُورَ وَالْخَشُونَةَ وَالتَّالِيَّ عَلَى اللَّهِ وَالْجَرَاءَةَ فِي حَقِّ أَعْظَمِ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ نَصَرُوا الْإِسْلَامَ وَوَضَعُوا أَرْوَاحَهُمْ عَلَى أَكْفِهِمْ اسْتِعْدَادًا لِبَذْلِهَا هَيْئَةً رَخِيصَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَمْ يَأْلُوا مَالًا وَلَا جَهْدًا وَلَا نَصْحًا لِلْإِسْلَامِ وَرَبِّ الْإِسْلَامِ وَرَسُولِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَنَسَبَتَهُمْ إِلَى الضَّلَالِ وَالْفِتْنَةِ وَالنِّفَاقِ وَالْكَفْرِ (أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ!)، لَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ وَاضِحٌ بَلْ صَارِخٌ فِي كَلَامِ ذَلِكَ الْإِبَاضِيِّ، مِمَّا لَا يَقْبَلُهُ أَيُّ إِنْسَانٍ

في رأسه شيء من العقل والفهم والذوق. وطبيعي أن يختلف مثله مع الشيعة، وله الحق، في دعواهم حق على في إمامة المسلمين بعد الرسول عليه الصلاة والسلام بوصفه ركنا سادسا في الإسلام، وإن كنا في ذات الوقت لا نشاح في فضل على وأنه أحق بالخلافة من معاوية، إلا أننا لا نرى ذلك على سبيل الوراثه له ثم لذريته إلى أبد الأبدین، بل على سبيل أفضليته كرم الله وجهه على من نازعوه الأمر بما فيهم الخوارج بطبيعة الحال. وقد مضى رأينا في هذا الأمر عند تناولنا التفاسير الشيعية بالدراسة، فلا لزوم من ثم لإعادة القول في ذلك.

أما الهواري فلم يتطرق إلى شيء من هذا السخف والتنطع والتطاول الغبي، ولا أزيد، ونزّه قلمه عن ذلك كله، فله الشكر. وكل ما عمله هو أنه في تفسير قوله تعالى في سورة "الشورى": {قُلْ لَا أَشْكُرُ عَلَيْكُمْ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} [الشورى: ٢٣] قد ذكر ما يلي: قوله: {قُلْ لَا أَشْكُرُ عَلَيْكُمْ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}: ذكروا عن عكرمة قال: كان النبي عليه السلام واسطاً في قريش، ليس في بطون قريش بطن إلا وقد ولده. فقال: {قُلْ لَا أَشْكُرُ عَلَيْكُمْ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}، أي إلا أن تراعوا ما بيني وبينكم من القرابة فتصدقوني. وقال الحسن: {إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}، أي إلا أن يتقربوا إلى الله بالعمل الصالح. وهو كقوله: {قُلْ مَا أَشْكُرُكُمْ عَلَيْكُمْ أَجْرًا إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا} [الفرقان: ٥٧]، أي بطاعته، فوسّع معنى القرابة بحيث جعلها في قريش عامة، أو في المطيعين من المسلمين بوجه أعم، ولم يحصرها في بني هاشم خاصة. ليس ذلك فحسب، بل إنه لدى تناوله قوله عز وجل من سورة "الأحزاب": "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس

أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا " لم يتلجج في القول بأنهم " ذكروا عن أنس بن مالك قال: " إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب علي وفاطمة ستة أشهر، وإذا خرج إلى صلاة الفجر يقول: الصلاة يا أهل البيت. {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} {الأحزاب: ٣٣}. قال بعضهم: بلغنا أن هذه الآية نزلت على النبي ﷺ في بيت أم سلمة ". أى أن موقف الخوارج الذين ينمى إليهم لم يمنعه من ذكر علي في هذا السياق الشريف حسبما جاءت به الروايات.

وهو، كسائر أهل مذهبه، لا يؤمن بأن لعليّ حقاً في خلافة النبي عليه السلام بعد وفاته، بيد أنه حين يقول هذا يقوله دون أدنى إساءة أو تشنّج. ولنقرأ تفسيره للآية ٧١ من سورة " التوبة ": " قوله: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} {الماندة: ٥٥}. قال الحسن: هو كقوله: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} {التوبة: ٧١} وكقوله: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا} {البقرة: ٢٥٧} وكقوله: {وَهُوَ تَوَلَّى الصَّالِحِينَ} {الأعراف: ١٩٦}. قال الكلبي: بلغنا أن عبد الله بن سلام ورهطاً من مسلمي أهل الكتاب أتوا النبي عند صلاة الظهر فقالوا: يا رسول الله، إن بيوتنا قاصية، ولا نجد متحدثاً دون المسجد، وإن قومنا لما رأونا قد قصدنا الله ورسوله وتركناهم ودينهم أظهروا لنا العداوة، وأقسموا ألا يخالطونا ولا يجالسونا، فشق ذلك علينا. فبينما هم يشكون ذلك إلى النبي إذ نزلت هذه الآية، فلما قرأها رسول الله ﷺ قالوا: رضينا الله ورسوله والمؤمنين أولياء. وأذن بلال بالصلاة. فخرج رسول الله ﷺ والناس يصلون بين قائم وراكع وساجد ". فهو، كما ترى، يفسر الآية بعيداً عن عليّ وذريته

تماما. وأنا أرى أن هذا هو أحسن تفسير لها، وقد قلت شيئا شبيها جدا به في كتابي: "سورة المائدة- دراسة أسلوبية فقهية مقارنة". غير أن ما أود التنبيه إليه هو أن الهواري لم يحاول قط المساس بعلى كرم الله وجهه بأى طريق. ويزيد صنيعه هذا كرمًا أنه كان جدًّا قريب عهد بعلى واصطدامه بالخوارج، على عكس إطفيش ابن القرن الرابع عشر الهجرى، الذى لم يستطع رغم تطاول الدهر أن يرتقى بفكره وشعوره عن حزرات الماضى اللعين ولا عن سخائم قلبه المملوء قبحا وصديدا ضد صهر رسول الله.

ودائما ما يؤول إطفيش آيات الصفات المشعرة بمشابهة الله سبحانه وتعالى لعباده، ولا يقبل موقف من يتوقف عن تأويلها حتى لو قال إنه يفوض كيفيتها إلى الله جل وعلا. وهو موقف متحکم، وإن كنت أنا شخصا أميل إلى التأويل ابتعادا عما يمكن أن يقع فيه بعض الناس من توهم المشابهة بين الله وعباده، إذ كثيرا ما أقول لنفسى: من يدري؟ ربما كان المثبتون المفوضون أقرب إلى الحقيقة: فهذا غيب. ثم إنه أمرٌ يختص بالله سبحانه، ولا يستطيع أحد منا أن يقطع بأن ما يراه هو الصواب الذى لا شائبة فيه، بل كل ما يمكننا قوله أن هذا هو الذى يبدو لنا مقتعا، أو على الأقل: أقرب إلى العقل. علاوة على أنه ليس فى موقف المثبتين المفوضين ما يسىء إلى جلال الألوهية. وهم، حين يصنعون ذلك، إنما يصنعونه احتراما للنص القرآنى وخوفا من الوقوع فى الخطأ بما يمكن أن يسىء إلى تصورنا لجلاله عزت قدرته. وبهذا الأسلوب يرى أصحاب الإثبات والتفويض أنهم يلزمون حدودهم، إذ يقولون إننا لا نعرف كيفية اتصافه سبحانه باليد والوجه والمجىء وما إلى ذلك. وهذا من التواضع

بمكان، وإن كان بعضهم يتصلب بدوره مثلما يتصلب إطفيش وأمثاله فيحملون على المؤولة حملة شعواء كأن من يؤولون قد كفروا أو ضلوا السبيل. الخلاصة أنني أرى أن كلا الفريقين مقبول إن شاء الله، والمهم ألا يكون هناك تجسيد من ناحية المثبتين، أو ينتهي الأمر إلى التعتيل عند المؤولين. وكله اجتهد مشكور يدل على الإيمان بالنص القرآني في إطار النزعة العقلية التي وهبها كل من الفريقين.

وهذه بعض أمثلة على نزعة مفسرنا الإباضي فيما يتعلق بآيات الصفات: ففي تفسيره لقوله تعالى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ كَلْبَةً وَقُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تَرْجِعَ الْأُمُورُ} [البقرة: ٢١٠] يقول: {إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ} [البقرة: ٢١٠]، على حذف مضاف، أي أمر الله، بدليل قوله تعالى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَلِكُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ} [الأنعام: ١٥٨]، أو بأس الله كقوله سبحانه: {جَاءَهُمْ بِأَسْنًا} [الأنعام: ٤٣] أو على حذف المتعلق، أي إلا أن يأتيهم الله بأمره، كما ورد ما يقرب منه في آية أخرى، أو ببأسه كما يدل له {عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: ٢٠٩]، فإن العزة في حكمة تناسب البأس الذي لا يطاق، وهي صفة قهر. والعزة بلا حكمة قد تضع حيلها وعدتها، وهذا في الجملة. والله منزّه عن الحيلة، وهذه الباء المقدرة للتعدية كهزمة التصيير، أي إلا أن يصير الله أمره أو بأسه آتياً. والمعنى في ذلك كله واحد، ولا بد من المصير إليه لأن الله تعالى منزّه عن الحركة والسكون لأنهما يستلزمان الحد والتحيز والجهة والتركيب والعجز والحدوث وغير ذلك من صفات الخلق. والحاصل أن مذهبنا ومذهب هؤلاء (أي المعتزلة) ومن وافقهم تأويل الآية عن ظاهرها إلى ما

يجوز وصف الله به ". وعند تفسير قوله تعالى: {وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [المائدة: ٤٢] نراه يورد الحديث القائل: " إن المقسطين على منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين "، ثم يفسر ذلك قائلا إن " يمين الرحمن عبارة عن المنزلة الرفيعة، والعرب تذكر اليمين في الأمر الحسن، ودلّ لذلك قوله: " وكلتا يديه يمين ". والتأويل في مثل ذلك هو الحق. وأما قول سلف الأشعرية في مثل ذلك: إنا نؤمن به وننزهه عن صفة الخلق ونكل معناه إلى الله ونقول: هو على معنى يليق به، وكذا طوائف من المتكلمين، فجمود وتعام عن الحق. ووافقنا متأخروهم في التأويل ". وفي تفسيره لقوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الأعراف: ٥٤] يقول: " واستوى: بمعنى استولى بالملك والغلبة والقوة والتصرف فيه كيف شاء. والعرش: جسم عظيم. وذلك مذهبنا ومذهب المعتزلة وأبي المعالي وغيره من حذّاق المتكلمين، وخص العرش بذكر الاستيلاء لعظمته ". وفي تفسيره لقوله عز شأنه عن موسى عليه السلام: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه: ٣٩] يقول: "{عَلَى عَيْنِي}": على رعايتي وحفظي لك. فالعين كناية عن الحفظ، ولا عين هناك. وإن شئت فقل: مجاز مرسل من باب إطلاق اسم الآلة على ما يعمل بها، ولا عين أيضا ". وفي تفسيره لقوله جل علاه: {إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ إِنَّمَا يُدْعُونَ اللَّهَ يَدْعُونَكَ اللَّهُ يَدْعُوكَ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} [الفتح: ١٠] يقول: " وقيل: (يده): نصره. فوق أيديهم: أي فوق نصرهم. أو (يده): حفظه، وأيديهم: جوارحهم. ومن زعم أنا نترك هذه التفاسير إلى السكوت عن التأويل

والى الايمان بظواهرها: اليد من غير تكيف ولا تعطيل، فقد اختار الحيرة والضلالة بعد ظهور الحق. وصَحَّ قول بعض: يده وأيديهم: القوة، وقول بعض: يده: ثوابه، وقول بعض، ونُسِبَ للجمهور: يده: نعمته. هي في المبايعة لما يستقبل من محاسنها فوق أيديهم الممتدة للبيعة ". وفى تفسير قوله سبحانه: " (الرحمن) نراه يقول: " {وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ } [الرحمن: ٢٧]، أي ذاته. والمخلوقات كلها فانية في حد ذاته، وإن وجدت ."

وكما قلت فإننى أميل إلى التأويل بوجه عام، إلا أنه ليس من الحصافة رمى إطفيش لمن يخالفونه بالجمود والتعamy عن الحق. فهل هو على يقين بأن ما يصنعه هو الحق الذى لا حق سواه؟ كما أنه ليس من التنزيه البتة أن يقول عن العرش إنه جسم عظيم! الله أكبر! وهل هذا إلا التجسيم بعينه الذى قرَّ هو وأشباهه منه؟ إن موقف المثبِّتة المفوَّضة هنا لأسلم مليار مرة من كلامه هذا، إذ هم يفوضون الكيفية التى عليها العرش إلى علم الله سبحانه، أما هو فقد جعله عرشاً مادياً، وهو ما يستتبع أن يكون استواؤه سبحانه وتعالى على ذلك العرش استواء مادياً أو شيئاً من هذا القبيل. أليس كذلك؟ أما رمية بالحيرة والضلال من يخالفونه فى التأويل مكتفين بإثبات اليد لله وتفويض كيفيتها أو معناها إلى الله فلا معنى له، علاوة على ما فيه من غرور واستعلاء، إذ لا حيرة ولا يحزنون، بل كل ما هنالك أن هذا هو ما يرتاحون إليه. وهم فى ذات الوقت يؤمنون بما قاله من أن الله كان مع أهل بيعة الرضوان بنصره وتأييده، وإن لم يؤولوا الآية كما أولها هو.

أما الهوارى، رحمه الله، فلا يتعرض عادة للجوارح المنسوبة لله

بتأويل ولا حتى بتفسير، بل يتركها ويمضي مكتفياً بإعطاء المعنى العام للآيات، وبهذا أراح واستراح وخرج من العهدة ولم يصب على الزيت ناراً. وهذه بضع أمثلة من طريقته في تناول مثل تلك النصوص. قال في الآية العاشرة من سورة "الفتح": "قوله: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} [الفتح: ١٠]، أي من بايع رسول الله ﷺ فإنما بايع الله. وهذا يوم الحديبية، وهيبيعة الرضوان. بايعوه على ألا يفروا. ذكروا عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال: بايعنا رسول الله ﷺ على ألا نفر، ولم نبايعه على الموت". وفي الآية رقم ٢٧ من سورة "الرحمن"، وهي الخاصة بالوجه يكتفى مفسرنا المريح المستريح بما نصه: "{وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ} [الرحمن: ٢٧]، أي العظمة {وَالْإِكْرَامِ}، أي لأهل طاعته". ترى هل هناك ما هو أبسط من هذا وأبعد عن الجدل وأقصد إلى المراد؟ وحتى حين يفسر مثل تلك النصوص فإنه يكتفى بأقل القليل ولا يدخل في جدال ولا يسفه أحداً، كما في قوله تعالى عن العين في كل من الآية الخامسة والآية التاسعة والثلاثين من سورة "طه"، إذ كل ما قاله فيهما على الترتيب هو: "قوله عز وجل: {وَلِئَصْنَعِ عَلِيٍّ} [طه: ٣٩]، أي بأمري. وقال بعضهم: ولتغذي على عيني، أي بعيني". وهو، كما يرى القارئ، أقرب إلا ألا يكون قد أول، "{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥] قال: استوى أمره في بريته فعلاهم فليس يخلو منه مكان"، وإن كان لا بد من التنبيه إلى أن قوله: "لا يخلو منه مكان" قد يوهم أن الأمانة تحتويه جل وعلا، وهو ما لا يمكن أن يكون لأنه هو خالق الأمانة والأمانة

والأشخاص والأشياء. إنما هي مفارقات اللغة الإنسانية، ولذلك لا أقف أمامها طويلاً، ولا أظن إلا أنه حسن النية.

* * *

التفكير العلمي

obeikandi.com

التفسير العلمي

ينقسم العلماء تلقاء التفسير العلمي للقرآن المجيد: فبعضهم يحبّه ويرحب به، وبعضهم يضيق به صدرًا ويدعو إلى الابتعاد عنه، خوفًا من توريط القرآن فيما لا تحمد عقباه حين يعمل المفسر العلمي على إنطاق النص القرآني غنوةً وكرهاً بما يعضد نظرية من النظريات ثم يثبت بطلانها فيما بعد، مما ينسحب على القرآن ذاته ويوقع في رُوع القراء أن الخطأ إنما يكمن في النص نفسه لا في المفسر. هذا، وقد يُظن أن التفسير العلمي للقرآن المجيد هو شيء طارئ في عصرنا وأن الانقسام حوله من ثم أمر جديد على ساحة البحوث الإسلامية. لكن هذا غير صحيح، فالتفسير العلمي قديم، وكذلك انقسام العلماء بشأنه. ومن الذين وافقوا من علمائنا القدامى على هذا اللون من التفسير الإمام الغزالي والإمام السيوطي. أما المعارضون فمنهم الشاطبي (انظر د. محمد حسين الذهبي/ علم التفسير / ٧٣ - ٧٦).

ومن يرد تفصيلاً أكبر لهذا الموضوع يستطيع الرجوع إلى موسوعته المسماة بـ "التفسير والمفسرون" حيث يقرأ ما يلي عن أبي حامد الغزالي والسيوطي والمُرسِي والشاطبي وموقفهم من ذلك الضرب من التفسير. يقول رحمه الله: "ويظهر لنا على حسب ما قرأنا أن الإمام الغزالي كان إلى عهده أكثر من استوفى بيان هذا القول في تفسير القرآن، وأهم من أيده وعمل على ترويجه في الأوساط العلمية الإسلامية على

رغم ما قرر فيها من قواعد فهم عبارات القرآن. وبين أيدينا كتاب "الإحياء" للغزالي نتصفحه فنجده يعقد الباب الرابع من أبواب "آداب تلاوة القرآن" في فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل. وفيه ينقل عن بعض العلماء "أن القرآن يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتى علم، إذ كل كلمة علم، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف، إذ لكل كلمة ظاهر وباطن، وحد ومطلع"، ثم يروى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: "من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن"، ثم يقول بعد ذلك كله: "وبالجملة فالعلوم كلها داخلة فى أفعال الله عز وجل وصفاته، وفى القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها، وفى القرآن إشارة إلى مجامعها"، ثم يزيد على ذلك فيقول: "بل كل ما أشكل فهمه على النظار واختلف فيه الخلائق فى النظريات والمعقولات فى القرآن إليه رموز، وعليه دلالات يختص أهل الفهم بدركها". ثم إننا نتصفح كتابه "جواهر القرآن" الذى ألفه بعد الإحياء كما يظهر لنا من مقدمته، فنجده يزيد هذا الذى قرره فى الإحياء بياناً وتفصيلاً، فيعقد الفصل الرابع منه لكيفية انشعاب العلوم الدينية كلها وما يتصل بها من القرآن عن تقسيمات وتفصيلات تولاها لا نطيل بذكرها، ويكفى أن نقول: إنه قسم علوم القرآن إلى قسمين: الأول علم الصِّدْف والقشْر، وجعل من مشتملاته علم اللُّغة، وعلم النحو، وعلم القراءات، وعلم مخارج الحروف، وعلم التفسير الظاهر. والثانى علم اللُّباب، وجعل من مشتملاته علم قصص الأولين، وعلم الكلام، وعلم الفقه، وعلم أصول الفقه، والعلم بالله واليوم الآخر، والعلم بالصراط المستقيم، وطريق السلوك. ثم يعقد

الفصل الخامس منه لكيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن، فيذكر علم الطب والنجوم، وهيئة العالم، وهيئة بدون الحيوان، وتشريح أعضائه، وعلم السحر، وعلم الطلسمات... وغير ذلك، ثم يقول: "وراء ما عدته علوم أخرى يُعَلِّمُ تراجمها ولا يخلو العالم عن من يعرفها، ولا حاجة إلى ذكرها، بل أقول: ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لا يُتَمَارَى فيها أن في الإمكان والقوة أصنافاً من العلوم بعدُ لم تخرج من الوجود، وإن كان في قوة الأدمى الوصول إليها، وعلوم كانت قد خرجت من الوجود واندرست الآن، قلن يوجد في هذه الأعصار على بسيط الأرض من يعرفها، وعلوم آخرُ ليس في قوة البشر أصلاً إدراكها والإحاطة بها، ويحظى بها بعض الملائكة المقربين، فإن الإمكان في حق الأدمى محدود، والإمكان في حق المَلَكِ محدود إلى غاية من النقصان، وإنما الله سبحانه هو الذي لا يتناهى العلم في حقه".

ثم يقول بعد ذلك: "ثم هذه العلوم: ما عددناها وما لم نعددها ليست أوانها خارجة من القرآن، فإن جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى، وهو بحر الأفعال. وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له، وأن البحر لو كان مَدَادًا لكلماته لَنَفِدَ البحر قبل أن تنفذ. فمن أفعال الله تعالى، وهو بحر، الشفاء والمرض كما قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} [الشعراء: ٨٠]. وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه. ومن أفعاله تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان، وقد قال الله تعالى: {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ} [

[الرحمن: ٥]، وقال: {وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِينَ وَالْحَسَابَ} [يوسف: ٥]، وقال: {وَحَسَفَ الْقَمَرُ ۝٨ وَجُمُعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝٩} [القيامة: ٨ - ٩]، وقال: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} [الحج: ٣١] وقال: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا أَذَلِكَ نَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٣٨} [يس: ٣٨]. ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبانٍ وخسوفهما، وولوج الليل في النهار وكيفية تكور أحدهما على الآخر إلا من عرف هياكل تركيب السموات والأرض، وهو علم برأسه. ولا يعرف كمال معنى قوله: {يَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ

رَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝٨} [الانقطار: ٦ - ٨] "إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطناً وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها... وكذلك لا يعرف معنى قوله: {سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي}، [الحجر: ٢٩] ما لم يعلم التسوية والنفخ والروح، ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق، وربما لا يفهمونها إن سمعوها من العالم بها. ولو ذهبت أقصّل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال، ولا يمكن الإشارة إلا إلى مجامعها. فتفكر في القرآن والشمس غرائب لتصادف فيه مجامع علم الأولين والآخرين."

كذلك نجد العلامة جلال الدين السيوطي ينحو منحى الغزالي في القول بالتفسير العلمي، ويقرر ذلك بوضوح وتوسع في كتابه "الإتقان" في النوع الخامس والسّتين منه، كما يقرر ذلك أيضاً بمثل هذا الوضوح والتوسع في كتابه "الإكليل في استنباط التنزيل"، ونجده يسوق من

الآيات والأحاديث والآثار ما يستدل به على أن القرآن مشتمل على كل العلوم. فمن الآيات قوله تعالى في الآية ٣٨ من سورة الأنعام: {مَا فَرَّقْنَا فِيكَ أَكْتَابَ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: ٣٨]، وقوله في الآية ٨٩ من سورة النحل: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ} [النحل: ٨٩]. ومن الأحاديث ما أخرجه الترمذى وغيره: أن رسول الله ﷺ قال: «ستكون فن»، قيل: وما المخرج منها؟ قال: «كتاب الله. فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم»، وما أخرجه أبو الشيخ عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لو أغفل شيئا لأغفل الذرة والحدلة والبعوضة». ومن الآثار ما أخرجه سعيد بن منصور عن ابن مسعود أنه قال: «من أراد العلم فعليه بالقرآن، فإن فيه خبر الأولين والآخرين»، وما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: «أنزل في القرآن كل علم، وبَيَّن لنا فيه كل شيء، لكن علمنا يقصر عما بَيَّن لنا في القرآن». ثم نجده بعد أن يسوق هذه الأدلة وغيرها يذكر لنا عن بعض العلماء أنه استنبط أن عمر النبي ﷺ ثلاث وستون سنة من قوله تعالى في الآية ١١ من سورة المنافقون: {وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا} [المنافقون: ١١]، فإنها رأس ثلاث وستين سورة، وعقبها بـ «التغابن» ليظهر التغابن في فقده.

ثم يذكر الدكتور الذهبي قول أبى الفضل المرسى في تفسيره إن القرآن قد «جمع علوم الأولين والآخرين، بحيث لم يحط بها علما حقيقة إلا المتكلم به، ثم رسول الله ﷺ خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم، مثل الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس حتى قال: لو ضاع لى عقل بغير لوجدته فى

كتاب الله تعالى، ثم ورث عنهم التابعون بإحسان، ثم تقاصرت الهمم وفترت العزائم وتضاءل أهل العلم وضعفوا عن حمل ما حمّله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه، فنوّعوا علومه، وقامت كل طائفة بفن من فنونه: فاعتنى قوم بضبط لغاته وتحرير كلماته ومعرفة مخارج حروفه وعددها وعدد كلماته وآياته وسوره وأحزابه وأنصافه وأرباعه وعدد سجّداته والتعليم عند كل عشر آيات... إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة والآيات المتماثلة من غير تعرض لمعانيه ولا تدبر لما أودع فيه، فسُمّوا: القُرّاء. واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبنى من الأسماء والأفعال، والحروف العاملة وغيرها، وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها وضروب الأفعال واللازم والمتعدى ورسوم خط الكلمات، وجميع ما يتعلق به، حتّى إن بعضهم أعرب مشكله، وبعضهم أعربه كلمة كلمة. واعتنى المفسّرون بالفاظه، فوجدوا منه لفظاً يدل على معنى واحد، ولفظاً يدل على معنيين، ولفظاً يدل على أكثر، فأجروا الأول على حكمه، وأوضحوا معنى الخفى منه، وخاضوا في ترجيح أحد احتمالات ذى المعنيين والمعانى، وأعمل كل منهم فكره وقال بما اقتضاه نظره. واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة القطعية والشواهد الأصلية والنظرية، مثل قوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} [الأنبياء: ٢٢]... إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، فاستنبطوا منها أدلة على وحدانية الله ووجوده وبقائه وقدمه وقدرته وعلمه وتنزيهه عما لا يليق به، وسَمّوا هذا العلم بـ "أصول الدين". وتأملت طائفة منهم معانى خطابه، قرأت منها ما يقتضى العموم، ومنها ما يقتضى الخصوص، إلى غير

ذلك، فاستنبطوا منه أحكام اللُّغة من الحقيقة والمجاز، وتكلموا فى التخصيص والإضمار والنص والظاهر والمُجْمَل والمُحْكَم والمتشابه والأمر والنهى والنسخ... إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة، واستصحاب الحال والاستقراء، وسَمَّوْا هذا الفن: " أصول الفقه ". وأحكمت طائفةٌ صحيح النظر وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام، فأسسوا أصوله وفرَّعوا فروعه وبسطوا القول فى ذلك بسطاً حسناً، وسَمَّوْهُ بـ " علم الفروع "، وبـ " الفقه " أيضاً. وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السابقة والأمم الخالية ونقلوا أخبارهم ودَوَّنوا آثارهم ووقائعهم، حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء وسَمَّوْا ذلك بـ " التاريخ ". وتنبَّه آخرون لما فيه من الحِكم والأمثال والمواعظ التى تقلقل قلوب الرجال، وتكاد تدكدك الجبال، فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد والتحذير والتبشير وذكر الموت والمعاد والنشر والحشر والحساب والعقاب والجَنَّة والنار فصولاً من المواعظ وأصولاً من الزواجر، فسَمَّوْا بذلك: " الخطباء والوعَّاظ ". واستنبط قوم ما فيه من أصول التعبير، مثل ما ورد فى قصة يوسف فى البقرات السمان، وفى منامى صاحبي السجن، وفى رؤياه الشمس والقمر والنجوم ساجدة، وسَمَّوْهُ: " تعبير الرؤيا "، واستنبطوا تأويل كل رؤيا من الكتاب. فإن عَزَّ عليهم إخراجها منه فمن السُّنة التى هى شارحة للكتاب. فإن عَزَّ فمن الحِكم والأمثال. ثم نظروا إلى اصطلاح العوام فى مخاطباتهم وعُرف عاداتهم، الذى أشار إليه القرآن بقوله: {وَأَمْرًا مَّعْرُوفٍ} [قمان: ١٧]. وأخذ قوم مما فى آيات الموارد من ذكر السهام وأربابها وغير ذلك علم الفرائض، واستنبطوا

منها من ذكر النِّصْفِ والثُّلُثِ والرُّبْعِ والسُّدُسِ والثَّمَنُ حساب الفرائض ومسائل العدل، واستخرجوا منه أحكام الوصايا. ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحِكم الباهرة في الليل والنهار والشمس والقمر ومنزله والبروج وغير ذلك فاستخرجوا منه علم المواقيت. ونظر الكتّاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ وبديع النظم وحُسن السياق والمبادئ والمقاطع والمخالص والتلوين في الخطاب والإطناب والإيجاز وغير ذلك، واستنبطوا منه المعاني والبيان والبديع. ونظر فيه أرباب الإشارات وأصحاب الحقيقة فلاح لهم من ألفاظه معاني وحقائق جعلوا لها أعلاماً اصطَلَحُوا عليها، مثل: الفناء والبقاء والحضور والخوف والهيبة والأنس والوحشة والقبض والبسط وما أشبه ذلك. هذه الفنون أخذتها المِلَّةُ الإسلامية منه. وقد احتوى على علومٍ أُخَر من علوم الأوائل مثل: الطب والجدل والهيئة والهندسة والجبر والمقابلة والنَّجَامة وغير ذلك من العلوم. أما الطب فمداره على نظام الصحة واستحكام القوة، وذلك إنما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة. وقد جمع ذلك في آية واحدة، وهي قوله تعالى: {وَكَانَ يَبْنِي ذَلِكَ قَوَامًا} [الفرقان: ٦٧]، وعرفنا فيه بما يفيد نظام الصحة بعد اختلاله، وحدث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله تعالى: {شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ} [النحل: ٦٩]. ثم زاد على طب الأجسام بطب القلوب وشفاء الصدور. وأما الهيئة ففي تضاعيف سوره من الآيات التي ذكر فيها ملكوت السموات والأرض وما بث في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات. وأما الهندسة ففي قوله تعالى: {أَنظِلْمُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۖ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ ۚ} [المرسلات: ٣٠ - ٣١]، فإن فيه

قاعدة هندسية، وهو أن الشكل المثلث لا ظل له. وأما الجدل فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج والقول بالموجب والمعارضة وغير ذلك شيئاً كثيراً، ومناظرة إبراهيم نمرود ومحاجته قومه أصل في ذلك عظيم. وأما الجبر والمقابلة فقد قيل إن أوائل السور فيها ذكر مُدَد وأعوام وأيام التواريخ لأمم سالفة، وإن فيها بقاء هذه الأمة وتاريخ مدة أيام الدنيا وما مضى وما بقى مضروباً بعضها في بعض. وأما النجامة ففي قوله تعالى: {أَوْ أَتُكْرَمُونَ} [الأحقاف: ٤]، فقد فسره بذلك ابن عباس. وفيه أصول الصنائع وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليه، كالخياطة في قوله: {وَطَيفَايَحْصِفَانِ} [الأعراف: ٢٢]، والحدادة: {أَتُؤَيِّرُ بِنَارٍ الْحَدِيدِ} [الكهف: ٩٦]، والبناء في آيات، والنجارة: {وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا} [هود: ٣٧]، والغزل: {نَقَضَتْ غَزْلَهَا} [النحل: ٩٢]، والنسج: {كَمَثَلِ الْكُفُوتِ اتَّخَذَتْ} [يونس: ٤١]، والفلاحة: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ} [الواقعة: ٦٣] ... الآيات، والصيد في آيات، والغوص: {وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ} [ص: ٣٧]، {وَتَسْتَخْرِجُ مِمَّنْ حُلَيْةً} [النحل: ١٤]، والصياغة: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَداً لَمُخْوَارًا} [الأعراف: ١٤٨]، والزجاجة: {الْمُصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ} [النور: ٣٥]، {مُتَرَدِّدًا مِنْ قَوَارِيرٍ} [الملك: ٤٤]، والفخارة: {فَأَوْقَدَ بَنِي يَهُودَى عَلَى الطِّينِ} [القصاص: ٣٨]، والملاحاة: {أَمَّا السَّفِينَةُ} [الكهف: ٧٩] الآية، والكتابة: {عَلَّمَ الْقُرْآنَ} [الرحمن: ٢] وفي آيات أخر، والخبز: {أَحْمِلْ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا} [يوسف: ٣٦]، والطبخ: {بِعَجَلٍ حَنِيدٍ} [هود: ٦٩]، والقصاراة: {وَيَا بَاكَ ظَهَرَ} [المائدة: ٤]، {قَالَ لِحَوَارِيِّتِهِ} [آل عمران: ٥٢] وهم القصَّارون، والجزارة: {لَا مَا ذَكَّيْتُمْ} [المائدة: ٣]، والبيع والشراء في آيات، والصبغ: {صَبَّغَهُ اللَّهُ} [البقرة:

[١٣٨]، {جَدُّ بَيْضٌ} [نظر: ٢٧]، والحجارة: {وَتَنَحُّثُونَ مِنَ الْجِبَالِ يُّوْنَا} [الشعراء: ١٤٩]، والكيالة والوزن في آيات كثيرة، والرمى: {وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ} [الأنفال: ١٧]، {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال: ٦٠]. وفيه من أسماء الآلات وضروب المأكولات والمشروبات والمنكوحات وجميع ما وقع ويقع في الكائنات ما يحقق معنى قوله: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: ٣٨]. قال السيوطي: انتهى كلام المرسى ملخصاً مع زيادات. ثم بعد روايته لهذه المقالة الطويلة نجده يذكر عن أبي بكر بن العربي أنه قال في كتابه: "قانون التأويل": "علوم القرآن خمسون علماً، وأربعمائة علم، وسبعة آلاف علم، وسبعون ألف علم، على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة، إذ لكل كلمة ظهر وبطن، وحد ومطلع. وهذا مطلق دون اعتبار التركيب وما بينها من روابط، وهذا ما لا يُخصَى وما لا يعملُه إلا الله". وأخيراً عقّب السيوطي على هذه النقول وغيرها فقال: "وأنا أقول: قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء، أما أنواعه فليس منها باب ولا مسألة هي أصلاً إلا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات وملكوت السموات والأرض وما في الأفق الأعلى وما تحت الثرى... وإلى غير ذلك مما يحتاج شرحه إلى مجلدات". ومن هذا يتبين لك كيف ظهرت آثار الثقافات العلمية للمسلمين في تفسير القرآن الكريم، وكيف حاول هؤلاء العلماء المتقدمون أن يجعلوا القرآن منبع العلوم كلها: ما جدّ وما يجدّ إلى يوم القيامة. ولو أننا نتبعنا سلسلة البحوث التفسيرية للقرآن الكريم لوجدنا أن هذه النزعة، نزعة التفسير العلمى، تمتد من عهد النهضة العلمية العباسية إلى يومنا هذا، ولوجدنا أنها كانت في أول الأمر

عبارة عن محاولات يُقصد منها التوفيق بين القرآن وما جَدَّ من العلوم، ثم وُجدت الفكرة مركزة وصريحة على لسان الغزالي وابن العربي والمرسى والسيوطي، ولوجدنا أيضًا أن هذه الفكرة قد طُبِّقت علميًا وظهرت في مثل محاولات الفخر الرازي ضمن تفسيره للقرآن. ثم وُجدت بعد ذلك كتب مستقلة في استخراج العلوم من القرآن وتتبع الآيات الخاصة بمختلف العلوم. وراجت هذه الفكرة في العصر المتأخر رواجًا كبيرًا بين جماعة من أهل العلم، ونتج عن ذلك مؤلفات كثيرة تعالج هذا الموضوع، كما ألُفَّت بعض التفاسير التي تسير على ضوء هذه الفكرة.

ومن الضفة الأخرى يذكر الدكتور الذهبي الإمام الشاطبي، الذي كان يعارض بمنتهى القوة أى اتجاه لتفسير القرآن في ضوء المعارف العلمية التي لم يكن العرب، وهم الذين نزل عليهم القرآن واتجه بخطابه إليهم، يعرفون عنها شيئًا: "ويظهر لنا على حسب ما قرأنا أن زعيم المعارضة لهذه الفكرة في العصور المتقدمة هو الفقيه الأصولي أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي الأندلسي المتوفى سنة ٧٩٠ هـ، وذلك أنا نجده في كتابه: "الموافقات" يعقد بحثًا خاصًا لمقاصد الشارع، وينوع هذه المقاصد إلى أنواعٍ تولَّى شرحها وبيانها. والذي يهمنا هنا النوع الثاني منها، وهو "بيان قصد الشارع في وضع الشريعة للأفهام". وفي المسألة الثالثة من مسائل هذا النوع نجده يقرر أن "هذه الشريعة المباركة أمّية، لأن أهلها كذلك، فهو أجرى على اعتبار المصالح"، ثم دَلَّ على ذلك بأمور ثلاثة لا نطيل بذكرها، ثم عَقَّبَ بفصلٍ ذكر فيه: "إن العرب كان لها اعتناء بعلوم ذكرها الناس، وكان لعقلائهم اعتناء بكمال الأخلاق،

واتصاف بمحاسن الشيم، فصحت الشريعة منها ما هو صحيح وزادت عليه، وأبطلت ما هو باطل، وبَيَّنَّتْ منافع ما ينفع من ذلك، ومضار ما يضر منه ”، ثم ذكر من العلوم الصحيحة التي كان للعرب اعتناء بها: علم النجوم وما يختص به من الاهتداء في البر والبحر، واختلاف الأزمان باختلاف سيرها، وما يتعلق بهذا المعنى. ثم قال: ” وهو معنى مقرر في أثناء القرآن في مواضع كثيرة كقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ} [الأنعام: ٩٧]، وقوله: {وَالنَّجْمُ هُمْ يَهْتَدُونَ} [النحل: ١٦]، وقوله: {وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ} ٣٩ {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس: ٣٩ - ٤٠]، وقوله: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ} [يوسف: ٥]، وقوله: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً} [الإسراء: ١٢] الآية، وقوله: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوحٍ وَجَعَلْنَا نُجُومًا لِلشَّيْطَانِ} [الملك: ٥]، وقوله: {سَأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} [البقرة: ١٨٩]... وما أشبه ذلك من الآيات. وذكر علم الأنواء وأوقات نزول الأمطار وإنشاء السحاب وهبوب الرياح المثيرة لها، وعرض لما ورد في ذلك من القرآن، مثل قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ أَلْبَاقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْفِثُ السَّحَابَ} [الأنفال: ١٢]، وقوله: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ} [الرعد: ١٢ - ١٣] الآية، وقوله: {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ} ٦٨ {أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ} ٦٩ {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْتَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا} [فاطر: ٩]... وغير ذلك من الآيات. وذكر علم

التاريخ وأخبار الأمم الماضية، وفي القرآن من ذلك ما هو كثير... قال تعالى: { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَتَمَهُمْ أَنَّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيَمَ } [آل عمران: ٤٤] الآية، وقال تعالى: { تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا } [هود: ٤٩]. وذكر علم الطب، وبين أنه كان في العرب منه شيء مبني على تجارب الأميين لا على قواعد الأقدمين. قال: " وعلى ذلك المساق جاء في الشريعة لكن على وجه جامع شاف قليل يطلع منه على كثير، فقال تعالى: { وَكَلُوا وَأَشْرُوا وَلَا تُسْرِفُوا } [الأعراف: ٣١]. وذكر التفنن في علم فنون البلاغة والخوض في وجوه الفصاحة والتصرف في أساليب الكلام. قال: " وهو أعظم منتحلتهم، فجاءهم بما أعجزهم من القرآن. قال تعالى: { قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } [الإسراء: ٨٨]. وذكر ضرب الأمثال، واستشهد بقوله تعالى: { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ } [الروم: ٥٨]. وذكر من العلوم التي غنى بها العرب، وأكثرها باطل أو جميعها: علم العيافة والزجر والكهانة وخط الرمل والضرب بالحصى والطيرة، قال: " فابطلت الشريعة من ذلك الباطل ونهت عنه، كالكهانة والزجر وخط الرمل، وأقرت الفال لا من جهة تطلب الغيب، فإن الكهانة والزجر كذلك. وأكثر هذه الأمور تخرص على علم الغيب من غير دليل، فجاء النبي ﷺ بجهة من تعرف علم الغيب مما هو محض، وهو الوحي والإلهام، وبقي للناس من ذلك بعد موته عليه السلام جزء من النبوة، وهو الرؤيا الصالحة، وأنموذج من غيره لبعض الخاصة، وهو الإلهام والفراسة. " ثم بعد هذا البيان الذي أوضح فيه

الشاطبي أن الشريعة، في صحيح ما صححت وإبطال ما أبطلت، قد عرضت من ذلك إلى ما تعرفه العرب من العلوم ولم تخرج عما ألفوه، نراه يزيد هذا البيان إسهاباً وإيضاحاً ويتوجه بالعلوم إلى مَنْ أضافوا للقرآن كل علوم الأولين والآخرين، مفنداً هذا الزعم الذي اعتقد أن قائله قد تجاوزوا به الحد في دعواهم على القرآن، وذلك حيث يقول في المسألة الرابعة من مسائل النوع الثاني من المقاصد، أعني مقاصد وضع الشريعة للإفهام: " ما تقرر من أمية الشريعة وأنها جارية على مذاهب أهلها، وهم العرب، ينبني عليه قواعد منها أن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يُذكر للمتقدمين والمتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم كالهندسة وغيرها من الرياضيات والمنطق وعلم الحروف وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها. وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح ". ثم يصحح الشاطبي رأيه هذا ويحتج له بما عُرِفَ عن السلف من نظرهم في القرآن فيقول: " إن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وبعلمومه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدعى سوى ما تقدم، وما ثبت فيه من أحكام التكاليف وأحكام الآخرة وما يلي ذلك. ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة. إلا أن ذلك لم يكن، فدلَّ على أنه غير موجود عندهم، وذلك دليل على أن القرآن لم يُفصد فيه تقرير لشيء مما زعموا. نعم تضمن علومًا من جنس علوم العرب أو ما ينبني على معهودها مما يتعجب منه أولو الأبواب ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة دون الاهتداء بأعلامه والاستتارة بنوره. وأما

أن فيه ما ليس من ذلك فلا ". ثم أخذ الشاطبي بعد هذا في ذكر ما استند إليه أرباب التفسير العلمي من الأدلة فقال: " وربما استدلوا على دعواهم بقوله تعالى: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ} [النحل: ٨٩]، وقوله: {مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: ٣٨]. ونحو ذلك، وفواتح السور، وهى مما لم يُعهد عند العرب، وبما نُقل عن الناس فيها. وربما حُكي من ذلك عن على بن أبى طالب رضى الله عنه وغيره أشياء "

ثم أخذ الشاطبي رحمه الله يفند هذه الأدلة فقال: " فأما الآيات فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبد، أو المراد بالكتاب فى قول: _____:

" مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ " اللوح المحفوظ، ولم يذكروا فيها ما يقتضى تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية. وأما فواتح السور فقد تكلم الناس فيها بما يقتضى أن للعرب بها عهداً، كعدد الجمل الذى تعرفوه من أهل الكتاب حسبما ذكره أصحاب السير، أو هى من المتشابهات التى لا يعلم تأويلها إلى الله تعالى، وغير ذلك. وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون، ولم يدَّعه أحد ممن تقدم، فلا دليل فيها على ما ادَّعوا، وما يُنقل عن على أو غيره فى هذا لا يثبت. فليس بجائز أن يُضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه، كما أنه لا يصح أن يُنكر منه ما يقتضيه، ويجب الاقتصاد فى الاستعانة على فهمه على كل ما يُضاف علمه إلى العرب خاصة، فبه يُوصل إلى علم ما أُودع من الأحكام الشرعية. فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضلَّ عن فهمه، ونقول على الله ورسوله فيه، والله أعلم، وبه التوفيق "

هذه هى الخلاصة الشاملة لمقالة الشاطبي فى هذا الموضوع، وذلك هو

رأيه فى التفسير العلمى الذى شغف به بعض العلماء المتقدمين والمتأخرين. وأحسب أنى، وقد وضعت بين يدى القارىء مقالة كل فريق وما يستند إليه من أدلة، قد أنزت له الطريق وأوضحت له السبيل ليختار نفسه ما يحلو بعد أن يحكم على أحدهما بأنه خير مقالة وأحسن دليلاً".

ثم يعلن الدكتور الذهبى رأيه فى هذه القضية الجدلية قائلاً: "أما أنا فاعتقداً أن الحق مع الشاطبى رحمه الله، لأن الأدلة التى ساقها لتصحيح مدَّعاه أدلة قوية لا يعترىها الضعف ولا يتطرق إليها الخلل، ولأن ما أجاب به على أدلة مخالفيه أجوبة سديدة دامغة لا تثبت أمامها حججهم، ولا يبقى معها مدَّعاهم. وهناك أمور أخرى يتقوى بها اعتقادنا أن الحق فى جانب الشاطبى ومن لفَّ لفَّه. فمن ذلك ما يأتى: أولاً الناحية اللغوية. وذلك أن الألفاظ اللغوية لم تقف عند معنى واحد من لدن استعمالها إلى اليوم، بل تدرجت حياة الألفاظ وتدرجت دلالاتها، فكان لكثير من الألفاظ دلالات مختلفة. ونحن، وإن كنا لا نعرف شيئاً عن تحديد هذا التدرج وتاريخ ظهور المعانى المختلفة للكلمة الواحدة، نستطيع أن نقطع بأن بعض المعانى للكلمة الواحدة حادث باصطلاح أرباب العلوم والفنون: فهناك معانٍ لغوية، وهناك معانٍ شرعية، وهناك معانٍ عرفية، وهذه المعانى كلها توقع بلفظ واحد بعضها عرفته العرب وقت نزول القرآن، وبعضها لا علم للعرب به وقت نزول القرآن نظراً لحدوثه وطروئه على اللفظ، فهل يُعقل بعد ذلك أن نتوسع هذا التوسع العجيب فى فهم ألفاظ القرآن ونجعلها تدل على معانٍ جدت باصطلاح حادث ولم تُعرف للعرب الذين نزل القرآن عليهم؟ وهل يعقل أن الله تعالى إنما أراد بهذه الألفاظ

القرآنية هذه المعاني التي حدثت بعد نزول القرآن بأجيال، في الوقت الذي نزلت فيه هذه الألفاظ من عند الله، وتُليث أول ما تُليث على من كان حول النبي ﷺ؟ اعتقد أن هذا أمر لا يعقله إلا من سفة نفسه، وأنكر عقله.

ثانيًا الناحية البلاغية. عُرِفَت البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومعلوم أن القرآن في أعلى درجات البلاغة. فإذا نحن ذهبنا مذهب أرباب التفسير العلمي وقلنا بأن القرآن متضمن لكل العلوم، وألفاظه متحملة لهذه المعاني المستحدثة، لأوقعنا أنفسنا في ورطة لا خلاص لنا منها إلا بما يخدش بلاغة القرآن أو يذهب ببطانة العرب. وذلك لأن من خوطبوا بالقرآن في وقت نزوله إن كانوا يجهلون هذه المعاني وكان الله يريد بها من خطابه إياهم لزم على ذلك أن يكون القرآن غير بليغ لأنه لم يراع حال المخاطب، وهذا سلب لأهم خصائص القرآن الكريم. وإن كانوا يعرفون هذه المعاني فلم تظهر نهضة العرب العلمية من لدن نزول القرآن الذي حوى علوم الأولين والآخرين؟ ولم لم تقم نهضتهم على هذه الآيات الشارحة لمختلف العلوم وسائر الفنون؟ وهذا أيضًا سلب لأهم خصائص العرب ومميزاتهم.

ثالثًا الناحية الاعتقادية. القرآن الكريم باقٍ ما تعاقب الملأوان، ونظامه نافع لكل عصر وزمان، فهو يتحدث إلى عقول الناس جميعًا من لدن نزوله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو يساير حياتهم في كل ما يمرون به من مراحل الزمن. وهذا كله بحكم كونه كتاب الشريعة العامة الشاملة، وقانون الدين الذي جعله الله خاتم شرائع السموات إلى أهل الأرض. هذا ما يجب على كل مسلم أن يعتقده ويدين به حتى يسلم له دينه

ولا يرتاب فيه. فإذا نحن ذهبنا مذهب مَنْ يُحْمَلُ القرآنُ كلُّ شيءٍ وجعلناه مصدرًا لجوامع الطب وضوابط الفلك ونظريات الهندسة وقوانين الكيمياء وما إلى ذلك من العلوم المختلفة لَكُنَّا بذلك قد أَوْعَنَّا الشكَّ في عقائد المسلمين نحو القرآن الكريم. وذلك لأن قواعد العلوم وما تقوم عليه من نظريات لا قرار لها ولا بقاء، فَرُبَّ نظرية علمية قال بها عالمُ اليوم ثم رجع عنها بعد زمن قليل أو كثير لأنه ظهر له خطؤها. وأمام سمعنا وبصرنا من المثل ما يشهد بأن كثيرًا من جوامع العلم لا يضبطها اليوم أحد إلا بتغير ضبطه لها بعد ذلك. وكَم بين نظريات العلم قديمة وحديثة من تنافٍ وتضادٍّ، فهل يعقل أن يكون القرآن محتملاً لجميع هذه النظريات والقواعد العلمية على ما بينها من التناقض والتضاد؟ وإذا كان هذا معقولاً، فهل يعقل أن يُصدَّق مسلم بالقرآن بعد هذا ويكون على يقين بأنه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟

الحق أن القرآن لا يُغْنَى بهذا اللون من حياة الناس ولا يتعهد بالشرح ولا يتولاها بالبيان حتى يكون مصدرهم الذي يرجعون إليه في تعريف حياتهم العلمية الدنيوية. ويبدو لنا أن أنصار هذه الفكرة، فكرة التفسير العلمي، لم يقولوا بها ولم يعملوا على تأييدها إلا بعد أن نظروا إليها كوجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم وبيان صلاحيته للحياة وتمشيهِ معها على اختلاف أحوالها وتطور أزمانها. ولكن "ما هكذا يا سعد تُورَد الإبل"، فإن إعجاز القرآن غنى عن أن يُسَلَّك في بيانه هذا المسلك المتكلف الذي قد يذهب بالإعجاز. وهناك من ألوان الإعجاز غير هذا ما يشهد للقرآن بأنه كتاب الله المنزَّل على محمد ﷺ. وإذا كان أرباب هذا

المسلك في التفسير يستندون إلى ما تناولته بعض آيات القرآن من حقائق الكون ومشاهده ودعوة الله لهم بالنظر في كتاب الكون وآياته التي بثَّها في الآفاق وفي أنفسهم، إذا كانوا يستندون إلى مثل هذا في دعواهم أن القرآن قد جمع علوم الأوَّلين والآخرين، فهم مخطئون ولا شك. وذلك لأن تناول القرآن لحقائق الكون ومشاهده ودعوته إلى النظر في ملكوت السموات والأرض وفي أنفسهم لا يُراد منه إلا رياضة وجدانات الناس وتوجيه عامتهم وخاصتهم إلى مكان العظة والعبرة ولفتهم إلى آيات قدرة الله ودلائل وحدانيته من جهة ما لهذه الآيات والمشاهد من روعة في النفس وجلال في القلب لا من جهة ما لها من دقائق النظريات وضوابط القوانين، فليس القرآن كتاب فلسفة أو طب أو هندسة. وليعلم أصحاب هذه الفكرة أن القرآن غنيٌّ عن أن يعتزَّ بمثل هذا التكلف الذي يوشك أن يخرج به عن هدفه الإنساني الاجتماعي في إصلاح الحياة ورياضة النفس والرجوع بها إلى الله تعالى. وليعلم أصحاب هذه الفكرة أيضًا أن من الخير لهم ولكتابهم أن لا ينحوا بالقرآن هذا المنحى في تفسيرهم رغبة منهم في إظهار إعجاز القرآن وصلاحيته للتمشى مع التطور الزمني، وحسبهم أن لا يكون في القرآن نص صريح يصادم حقيقة علمية ثابتة، وحسب القرآن أنه يمكن التوفيق بينه وبين ما جدَّ ويجدُّ من نظريات وقوانين علمية تقوم على أساس من الحق، وتستند إلى أصل من الصحة.

هذا ما قاله الدكتور الذهبي رحمه الله، ولكن كيف يعرف المسلمون أن القرآن ليس فيه ما يصادم حقيقة من حقائق العلم ما لم يدرسوه جيدا

من هذه الناحية؟ علاوة أن كونه كتاب هداية ليس معناه أن نقصر هذه الهداية على هداية العقيدة والخلق والسلوك فحسب، إذ الهداية أوسع من ذلك وأعم وأشمل: فهناك هداية فكرية، وهداية سياسية، وهداية اجتماعية، وهداية اقتصادية، وهداية ذوقية، وهداية صحية، وهداية إدارية... وهلم جرا. ومن هداية الفكر ما يلفتنا إليه القرآن من ظواهر الكون وحقائق العلم... وهلم جرا. والقرآن مفعم بالآيات التي تدعو إلى تشغيل العقول والنظر في الآفاق والاستزادة من المعرفة واتباع المنهج العلمي الصحيح في التفكير والاستدلال، فليس كل كتاب الله إذن مخصصا للهداية العقيدية والأخلاقية والسلوكية دون غيرها من الهدايات. ثم إن في القرآن آيات كثيرة تتعلق بالمعارف العلمية الطبيعية والرياضية والإنسانية، فماذا نصنع إزاءها؟ وكيف يستطيع المفسر التقليدي الذي ليس له من بضاعة إلا بضاعة اللغة والفقه والبلاغة وما إلى ذلك أن يتناولها تناولاً يشفى ويريح العقل المعاصر؟ وما معنى التخصص إذن؟ أم ترى القرآن كتاباً ساذجاً لا يستحق أن نستعين في فهمه بألوان العلوم والفنون المختلفة؟ أفلا نخصص إذن لهذا الجانب العلمي في القرآن بعض جهدنا في الفهم والتفسير؟ ثم هل يمكن أن تتم هداية المسلم، وهو ضعيف علمياً؟ فماذا نصنع بقوله تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: ٩].

ونفس الشيء يقال عن العصر الحديث، إذ هناك من يوافق على التفسير العلمي لآيات القرآن، وهناك من يرفض ذلك. وممن رحب بهذا وتحمس له من المصريين فقط عبد الله (باشا) فكرى وزير المعارف في القرن التاسع عشر، ومصطفى صادق الرافعى، وعبد العزيز (باشا)

إسماعيل ود. توفيق صدقي ود. محمد أحمد الغمراوي والأستاذ حنفي أحمد والأستاذ عبد الرازق نوفل والأستاذ عبد العزيز سيد الأهل والأستاذ على عبد العظيم ود. السيد الجميلي ود. مصطفى محمود ود. محمد أحمد الشهاوي ود. منصور حسب النبي ود. زغلول النجار. ولكل واحد من هؤلاء تقريبا مساهمة في هذا المجال. وهناك مواقع متعددة خاصة بتفسير الآيات التي تتصل بالعلوم الطبيعية والرياضية والنفسية وما إلى هذا منشورة على المشبّاك، وفيها بحوث ودراسات يعمل أصحابها على أن يتناولوا كل شيء من ذلك في كتاب الله بالبحث والدرس.

وقد أورد د. يوسف القرضاوي في كتابه: "كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟" بعض الأسماء الراقضة في عصرنا لهذا اللون من التفسير والحجج التي استندت إليها في ذلك الرفض. قال: "اشتهر في عصرنا لون جديد من التفسير، أطلق عليه "التفسير العلمي للقرآن"، ويُقصد به التفسير الذي تستخدم فيه العلوم الكونية الحديثة: حقائقها ونظرياتها لبيان مراميه وتوضيح معانيه. والذين يُعَنّون بهذا اللون من التفسير في الغالب ويتحمسون له هم علماء الكون والطبيعة، وليسوا من علماء الدين والشريعة. وعلماء الدين والشريعة يختلفون فيما بينهم حول جواز هذا اللون من التفسير ومدى شرعيته. وفي الخمسينيات من القرن العشرين ثارت معركة جذلية على صفحات الصحف المصرية بين فريقين من علماء الدين حول هذه القضية، وأحسب أن الخلاف فيها لم يزل إلى يومنا بين منتصر لهذا الرأي ومنتصر لمخالفه. وقبل ذلك وجدنا من كبار العلماء الباحثين المحدثين المؤيدين والمعارضين، وإن كان المعارضون

أكثر وأوفر.

وجدنا من المعارضين الإمام الأكبر محمود شلتوت رحمه الله، الذي أنكر في مقدمة تفسيره على طائفة من المثقفين أخذوا بطرف من العلم الحديث وانتقوا أو تلقفوا شيئا من النظريات العلمية والفلسفية وغيرها، وأخذوا يستندون إلى ثقافتهم الحديثة ويفسرون آيات القرآن على مقتضاها. قال الشيخ عن هؤلاء: "نظروا في القرآن فوجدوا الله سبحانه وتعالى يقول: {مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: ٣٨]، فتأولوها على نحو زين لهم أن يفتحوا في القرآن فتحاً جديداً، ففسروه على أساس من النظريات العلمية المستحدثة، وطبقوا آياته على ما وقعوا عليه من قواعد العلوم الكونية، وظنوا أنهم بذلك يخدمون القرآن ويرفعون من شأن الإسلام ويدعون له أبلغ دعاية في الأوساط العلمية والثقافية. نظروا في القرآن على هذا الأساس، فأفسد ذلك عليهم أمر علاقتهم بالقرآن وأفضى بهم إلى صورة من التفكير لا يريدونها القرآن ولا تتفق مع الغرض الذي من أجله أنزله الله. هذه النظرة للقرآن خاطئة من غير شك لأن الله لم يُنزل القرآن ليكون كتاباً يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف. وهي خاطئة لأنها تعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان، والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الأخير، فقد يصح اليوم في نظر العالم ما يصبح غداً من الخرافات. فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة لعرضناه للتقلب معها وتحمّل تبعات الخطأ فيها، ولأوقفنا أنفسنا بذلك موقفاً حرجاً في الدفاع عنه. فلندع للقرآن عظمتَه وجلالته، ولنحفظ عليه قدسيته

ومهابته، ولنعلم أن ما تضمنه من الإشارة إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة إنما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر ليزداد الناس إيماناً مع إيمانهم. وحسبنا أن القرآن لم يصادم الفطرة، ولم يصادم ولن يصادم حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول... ”.

ووجدنا من المعارضين الأستاذ الشيخ أمين الخولي في بحثه المركز: ” التفسير: معالم حياته، منهجه اليوم ”. وقد نقل فيه رأي الشاطبي واعتراضه على الذين أرادوا أن يخرجوا بالقرآن عن نهجه في مخاطبة العرب بما يفهمون وفي إطار ما يعهدون من علوم ومعارف، وردّ على الذين زعموا أن في القرآن علوم الأولين والآخرين: دينية ودنيوية، شرعية وعقلية. وهو رأي الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر الأسبق، قاله في تقديمه لكتاب عبد العزيز (باشا) إسماعيل: ” الإسلام والطب الحديث ”. وهو رأي د. عبد الحليم محمود والشيخ عبد الله المشد والشيخ أبو بكر ذكري، أعلنوه في مقدمة تفسيرهم الموجز للقرآن، والذي كان ينشر في مجلة ” نور الإسلام ” لسان علماء الوعظ والإرشاد في الأزهر.

وينحو صاحب ” الظلال ” سيد قطب، رحمه الله، هذا المنحى في تفسيره لآية ” يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِةِ ”، إذ يقول بقلمه البليغ: وإني لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه أن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه، وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه! إن القرآن كتاب كامل في موضوعه، وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها لأنه

هو الإنسان ذاته الذي يكتشف هذه المعلومات وينتفع بها، والبحث والتجريب والتطبيق من خواص العقل في الإنسان. والقرآن يعالج بناء هذا الإنسان، بناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره، كما يعالج بناء المجتمع الإنساني الذي يسمح بأن يحسن استخدام هذه الطاقات المذخورة فيه. وبعد أن يوجد الإنسان السليم التصور والتفكير والشعور، ويوجد المجتمع الذي يسمح له بالنشاط، يتركه القرآن يبحث ويجرب ويخطئ ويصيب في مجال العلم والبحث والتجريب، وقد ضمن له موازين التصور والتدبير والتفكير الصحيح. كذلك لا يجوز أن نعلق الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن أحياناً عن الكون في طريقه إنشاء التصور الصحيح لطبيعة الوجود وارتباطه بخالقه، وطبيعة التناسق بين أجزائه، لا يجوز أن نعلق هذه الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن بفروض العقل البشري ونظرياته، ولا حتى بما نسميه: "حقائق علمية" مما ينتهي إليه بطريق التجربة القاطعة في نظره.

إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة. أما ما يصل إليه البحث الإنساني، أيًا كانت الأدوات المتاحة له، فهي حقائق غير نهائية ولا قاطعة، وهي مقيدة بحدود تجاربه وظروف هذه التجارب وأدواتها. فمن الخطأ المنهجي بحكم المنهج العلمي الإنساني ذاته أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية، وهي كل ما يصل إليه العلم البشري. هذا بالقياس إلى الحقائق العلمية، والأمر أوضح بالقياس إلى النظريات والفروض التي تسمى: "علمية". ومن هذه النظريات والفروض كل النظريات الفلكية، وكل النظريات الخاصة بنشأة الإنسان وأطواره، وكل

النظريات الخاصة بنفس الإنسان وسلوكه، وكل النظريات الخاصة بنشأة المجتمعات وأطوارها. فهذه كلها ليست " حقائق علمية " حتى بالقياس الإنساني، وإنما هي نظريات وفروض كل قيمتها أنها تصلح لتفسير أكبر قدر من الظواهر الكونية أو الحيوية أو النفسية أو الاجتماعية، وإلى أن يظهر فرض آخر يفسر قدراً أكبر من الظواهر، أو يفسر تلك الظواهر تفسيراً أدق! ومن ثم فهي قابلة للتغيير والتعديل والنقص والإضافة، بل قابلة لأن تنقلب رأساً على عقب بظهور أداة كشف جديدة أو بتفسير جديد لمجموعة الملاحظات القديمة. وكل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجددة متغيرة، أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا، تحتوي أولاً على خطأ منهجي أساسي. كما أنها تنطوي على معانٍ ثلاثة كلها لا يليق بالقرآن الكريم:

المعنى الأول الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن، والقرآن تابع. ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم أو الاستدلال له من العلم، على حين أن القرآن كتاب كامل في موضوعه، ونهائي في حقائقه. والعلم لا يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبتته بالأمس، وكل ما يصل إليه غير نهائي ولا مطلق لأنه مقيد بوسع الإنسان وعقله وأدواته، وكلها ليس من طبيعتها أن تعطي حقيقة واحدة نهائية مطلقة. والمعنى الثاني سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته، وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان بناء يتفق، بقدر ما تسمح طبيعة الإنسان النسبية، مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهي حتى لا يصطدم الإنسان بالكون من حوله، بل يصادقه ويعرف بعض أسرارهِ ويستخدم بعض

نواميسه في خلافته، نواميسه التي تنكشف له بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق، وفق ما يهديه إليه عقله الموهوب له ليعمل لا ليتسلم المعلومات المادية جاهزة! والمعنى الثالث هو التأويل المستمر، مع التمثل والتكلف، لنصوص القرآن كي نحملها ونلث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر. وكل يوم يوجد جديد، وكل أولئك لا يتفق وجلال القرآن، كما أنه يحتوي على خطأ منهجي، كما أسلفنا.

أما كاتب هذه السطور فليس مع الرافضين للتفسير العلمي رغم شدة احترامه لهم وإكباره لما كتبوه. وما دام التفسير العلمي لا يصادم الآية في لغتها ولا يلويها عن سياقها أو عن معناها الذي يحكم به العقل السليم فأهلا به وسهلا ومرحبا. أما القول بأن القرآن إنما نزل يخاطب العرب المعاصرين للرسول وحدهم فهذا غير صحيح، إذ هو يخاطب من خلالهم البشرية كلها منذ عصرهم إلى أبد الأبدين. وما دام العلم يتقدم كل يوم ويقفز بخطاه الجبارة فلا بد أن نستعين به في فهم هذا النص الإلهي المعجز. والله سبحانه وتعالى ليس عربيا ولا هو ينتمي إلى عصر المبعث، بل هو سبحانه فوق الزمان والمكان والأجناس والأعراق والثقافات، وكلامه أزلى أبدى. والذي أومن به أن النص القرآني قد صيغ صياغة تسمح بفهمه فهما متجددا وسليما في كل عصر. ونحن نعرف أن للحقيقة وجوها مختلفة، وإذا لم يكن في كلام الله تلك الشمولية ففى أى كلام يا ترى تكون؟ ولقد سبق أن ضربت أمثلة على ضرورة الاستعانة بالعلوم الطبيعية والفلسفية والرياضية في فهم نصوص قرآنية لا يمكن فهمها من قبل العقل الحديث بدونها. كما أن المُحَدِّثِينَ والمعاصرين قد

استحدثوا من الدراسات القرآنية ما لم يكن يخطر على بال أحد، فكيف يقال إن إحساسهم البلاغي بجمال العبارة القرآنية أضعف من إحساس عرب المبعث؟ وبالنسبة لى لن يحجزنى أنى مؤلف كتاب " القرآن والحديث - مقارنة أسلوبية " عن التنبيه إلى ما فيه من لون جديد من الدراسات القرآنية فأسكت عن القول بأن هذه أول مرة يفصل القول أسلوبيا وإحصائيا وتحليليا فى المقارنة بين لغة القرآن ولغة الرسول عليه السلام. ولا ريب فى أن هذا الإنجاز ما كان لىتم فى العصور السابقة لأنه ابن عصره. كما استطعت أيضا فى كتبى عن سور " المائدة " و " يوسف " و " الرعد " و " طه " و " النجم " و " الرحمن " رصد عشرات الفروق الأسلوبية بين النصوص المكية والمدنية فى كتاب الله مما يعد جديدا تمام الجدة، إذ لم يتوصل القدماء طوال الأربعة عشر قرنا الماضية إلا إلى بضعة فروق قليلة من هذا اللون يجدها القارئ مكررة فى كتب علوم القرآن هنا وهناك دون زيادة أو نقصان. ومن المؤكد أن هناك دراسات أخرى ظهرت فى عصرنا هذا، فكيف يهون من شأن هذا العصر والجهود التى تُبذل فيه لخدمة كتاب الله بحجة أن القدماء كانوا أفصح منا وأبلغ، وأقدر على فهم القرآن من كل نواحيه فهما لا يمكننا نحن المُحدثين بلوغ شىء منه؟

أما اعتراضات سيد قطب رحمه الله فالرد عليها كالآتى: ليس من الهزيمة الداخلية فى شىء أن أستعين بالعلوم الطبيعية، وإلا كانت الاستعانة بأى علم آخر حتى لو كان علم النحو أو البلاغة مثلا هزيمة نفسية أيضا، إذ كلها علوم بشرية، وليس ثم فرق بين أى منها والآخر.

ونحن لا نجعل العلوم الطبيعية هي الأصل، بل القرآن، الذي شأنه شأن أى نص آخر يحتاج فى فهمه وتذوقه إلى وسائل وأدوات، ومنها العلوم الطبيعية والرياضية. وقد قلنا إنه لا بد أن يلج المفسر العلمى على أن ما يقوله إن هو إلا اجتهادات منه قد تصيب وقد تخطئ، وأن النص القرآنى شىء مختلف تماما عن هذا الذى يقول. ثم لقد قلنا أيضا إنه لا يصح تحميل النص القرآنى ما لا يحتمل أو تقويله ما لا يقول. كما قلنا إن كلام المفسرين الذين لا يستعينون بتلك العلوم المبغوضة عند البعض كثيرا ما يخطئ، فهل يكون هذا مسوغا لرفض الاستعانة بالعلوم التقليدية التى يستعين بها أولئك المفسرون من نحو وبلاغة وحديث وما إلى ذلك؟ ثم ماذا نفعل فى الآيات التى استعنت فى هذا الكتاب بكلام المتخصصين فى العلوم الطبيعية فى فهمها، وهى لا تُفهم فى عصرنا الفهم المريح للذهن والقلب إلا بالاستعانة بتلك المباحث؟ هذا هو السؤال. ثم إن التفسير التقليدى كثيرا ما يعاد فيه النظر، ويقول اللاحق كلاما ينقض كلام السابق. أى أن الاستعانة بالعلوم الطبيعية ليست هى وحدها المعرّضة لهذا الأمر. وأود هنا أن أقول كلمة جد مهمة، وهى أن العلم الطبيعى، مثل أى علم آخر، إنما هو نعمة من الله، فكيف يمكن أن نقاطع تلك النعمة وكأنها مستوحاة من الشيطان؟ المطلوب منا أن نسدّد ونقارب وأن نجتهد بأقصى ما نقدر، ولو نجحنا فخير وبركة، ولنا من الله الكريم الرحيم درجتان، وإذا كانت الأخرى فدرجة واحدة، إذ من المعروف طبقا لحديث سيد المرسلين أنه لا عقاب فى الإسلام على الاجتهاد حتى لو أخطأ صاحبه ما دام قد استفرغ الوسع.

على أن ما نقله د. القرضاوى من كلام سيد قطب ليس هو كل كلام الرجل في هذا السبيل، إذ عَقَّب رحمه الله على هذا الكلام بما يلى: " ولكن هذا لا يعني ألا ننتفع بما يكشفه العلم من نظريات ومن حقائق عن الكون والحياة والإنسان في فهم القرآن. كلا! إن هذا ليس هو الذي عَنَيْنَا بذلك البيان. ولقد قال الله سبحانه: { سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ } [فصلت: ٥٣]. ومن مقتضى هذه الإشارة أن نظل نتدبر كل ما يكشفه العلم في الأفاق وفي الأنفس من آيات الله، وأن نوسّع بما يكشفه مدى المدلولات القرآنية في تصورنا. فكيف، ودون أن نعلق النصوص القرآنية النهائية المطلقة بمدلولات ليست نهائية ولا مطلقة؟ هنا ينفع المثال: يقول القرآن الكريم مثلاً: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا} [الفرقان: ٢]. ثم تكشف الملاحظات العلمية أن هناك موافقات دقيقة وتناسقات ملحوظة بدقة في هذا الكون: الأرض بهيئتها هذه وبيعد الشمس عنها هذا البعد، وبعد القمر عنها هذا البعد، وحجم الشمس والقمر بالنسبة لحجمها، وبسرعة حركتها هذه، وبميل محورها هذا، وبتكوين سطحها هذا، وبآلاف من الخصائص، هي التي تصلح للحياة وتوائمها. فليس شيء من هذا كله قلّة عارضة ولا مصادفة غير مقصودة. هذه الملاحظات تفيدنا في توسيع مدلول {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا} وتعميقه في تصورنا. فلا بأس من تتبع مثل هذه الملاحظات لتوسيع هذا المدلول وتعميقه... وهكذا.

هذا جائز ومطلوب، ولكن الذي لا يجوز ولا يصح علمياً هذه الأمثلة الأخرى: يقول القرآن الكريم: " خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ "، ثم توجد نظرية في النشوء والارتقاء لوالاس ودارون تفترض أن الحياة

بدأت خلية واحدة، وأن هذه الخلية نشأت في الماء، وأنها تطورت حتى انتهت إلى خلق الإنسان. فنحمل نحن هذا النص القرآني ونلهث وراء النظرية لنقول: هذا هو الذي عناه القرآن! لا. إن هذه النظرية أولاً ليست نهائية، فقد دخل عليها من التعديل في أقل من قرن من الزمان ما يكاد يغيرها نهائياً. وقد ظهر فيها من النقص المبني على معلومات ناقصة عن وحدات الوراثة التي تحتفظ لكل نوع بخصائصه ولا تسمح بانتقال نوع إلى نوع آخر ما يكاد يبطلها. وهي معرضة غدا للنقض والبطلان، بينما الحقيقة القرآنية نهائية، وليس من الضروري أن يكون هذا معناها، فهي تثبت فقط أصل نشأة الإنسان ولا تذكر تفصيلات هذه النشأة. وهي نهائية في النقطة التي تستهدفها، وهي أصل النشأة الإنسانية وكفى، ولا زيادة. ويقول القرآن الكريم: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا} [يس: ٣٨]، فيثبت حقيقة نهائية عن الشمس، وهي أنها تجري. ويقول العلم إن الشمس تجري بالنسبة لما حولها من النجوم بسرعة قدرت بنحو ١٢ ميلاً في الثانية، ولكنها في دورانها مع المجرة التي هي واحدة من نجومها تجري جميعاً بسرعة ١٧٠ ميلاً في الثانية. ولكن هذه الملاحظات الفلكية ليست هي عين مدلول الآية القرآنية. إن هذه تعطينا حقيقة نسبية غير نهائية قابلة للتعديل أو البطلان. أما الآية القرآنية فتعطينا حقيقة نهائية في أن الشمس تجري، وكفى. فلا نعلق هذه بتلك أبداً. ويقول القرآن الكريم: {أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا} [الأنبياء: ٣٠]، ثم تظهر نظرية تقول إن الأرض كانت قطعة من الشمس فانفصلت عنها، فنحمل النص القرآني ونلهث لنذكر هذه النظرية العلمية ونقول: هذا ما تعنيه

الآية القرآنية! لا. ليس هذا هو الذي تعنيه! فهذه نظرية ليست نهائية، وهناك عدة نظريات عن نشأة الأرض في مثل مستواها من ناحية الإثبات العلمي! أما الحقيقة القرآنية فهي نهائية ومطلقة، وهي تحدد فقط أن الأرض فُصِّلَتْ عن السماء. كيف؟ ما هي السماء التي فُصِّلَتْ عنها؟ هذا ما لا تتعرض له الآية، ومن ثم لا يجوز أن يقال عن أي فرض من الفروض العلمية في هذا الموضوع إنه المدلول النهائي المطابق للآية! وحسبنا هذا الاستطراد بهذه المناسبة، فقد أردنا به إيضاح المنهج الصحيح في الانتفاع بالكشوف العلمية في توسيع مدلول الآيات القرآنية وتعميقها دون تعليقها بنظرية خاصة أو بحقيقة علمية خاصة تعليق تطابق وتصديق. وفرق بين هذا وذاك ". ولو تأملنا هذه السطور لرأينا، رحمه الله، لا ينكر الاستفادة من التقدم العلمي واكتشافاته في فهم القرآن على طول الخط، بل ينصب إنكاره فقط على المغالاة في ذلك والجرى وراء كل ساقطة ولاقطة مما يقوله العلماء دون أن يكون هناك سند متين لهذا الذي يقولون. وهو ما لا يختلف عما اخترناه.

ولكى يطمئن القارئ أن ما أوردناه الآن هو الذي يمثل موقف سيد قطب نسوق إليه أيضا من تفسيره المسمى: " في ظلال القرآن " هذه الفقرات التي تبين أن ما نقله عنه الدكتور القرضاوي لا يصور رأيه من كل جوانبه.

يقول رحمه الله عند الكلام عن قوله تعالى: { أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ } (الأنبياء: ٣٠ - ٣١) : " وتقريره

(أى القرآن) أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقنا مسألة جدية بالتأمل كلما تقدمت النظريات الفلكية في محاولة تفسير الظواهر الكونية فحامت حول هذه الحقيقة التي أوردها القرآن الكريم منذ أكثر من ثلاثمائة وألف عام. فالنظرية القائمة اليوم هي أن المجموعات النجمية، كالمجموعة الشمسية المؤلفة من الشمس وتوابعها ومنها الأرض والقمر، كانت سديمًا، ثم انفصلت وأخذت أشكالها الكروية، وأن الأرض كانت قطعة من الشمس ثم انفصلت عنها وبردت. ولكن هذه ليست سوى نظرية فلكية تقوم اليوم، وقد تُنقَضُ غداً، وتقوم نظرية أخرى تصلح لتفسير الظواهر الكونية بفرض آخر يتحول إلى نظرية. ونحن أصحاب هذه العقيدة لا نحاول أن نحمل النص القرآني المستيقن على نظرية غير مستيقنة تُقبل اليوم وتُرفَضُ غداً. لذلك لا نحاول في هذه الظلال أن نوفق بين النصوص القرآنية والنظريات التي تسمى علمية. وهي شيء آخر غير الحقائق العلمية الثابتة القابلة للتجربة كتمدد المعادن بالحرارة وتحول الماء بخاراً وتجمده بالبرودة... إلى آخر هذا النوع من الحقائق العلمية. وهي شيء آخر غير النظريات العلمية كما بينا من قبل في الظلال. إن القرآن ليس كتاب نظريات علمية ولم يجيء ليكون علماً تجريبياً كذلك. إنما هو منهج للحياة كلها، منهج لتقويم العقل ليعمل وينطلق في حدوده، ولتقويم المجتمع ليسمح للعقل بالعمل والانطلاق دون أن يدخل في جزئيات وتفصيليات علمية بحتة، فهذا متروك للعقل بعد تقويمه وإطلاق سراحه.

وقد يشير القرآن أحياناً إلى حقائق كونية كهذه الحقيقة التي يقرها

هنا: {إِنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا} ". ونحن نستيقن هذه الحقيقة لمجرد ورودها في القرآن، وإن كنا لا نعرف منه كيف كان فتق السماوات والأرض، أو فتق السماوات عن الأرض. ونتقبل النظريات الفلكية التي لا تخالف هذه الحقيقة المجملة التي قررها القرآن، ولكننا لا نجري بالنص القرآني وراء أية نظرية فلكية، ولا نطلب تصديقا للقرآن في نظريات البشر. وهو حقيقة مستيقنة! وقصارى ما يقال إن النظرية الفلكية القائمة اليوم لا تعارض المفهوم الإجمالي لهذا النص القرآني السابق عليها بأجيال! فأما شطر الآية الثاني: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا} [الأنبياء: ٣٠] فيقرر كذلك حقيقة خطيرة يعد العلماء كشفها وتقريرها أمرا عظيما، ويمجدون دارون لاهتدائه إليها وتقريره أن الماء هو مهد الحياة الأول. وهي حقيقة تثير الانتباه حقا، وإن كان ورودها في القرآن الكريم لا يثير العجب في نفوسنا، ولا يزيدنا يقينا بصدق هذا القرآن. فنحن نستمد الاعتقاد بصدقه المطلق في كل ما يقرره من إيماننا بأنه من عند الله. لا من موافقة النظريات أو الكشوف العلمية له. وأقصى ما يقال هنا كذلك إن نظرية النشوء والارتقاء لدارون وجماعته لا تعارض مفهوم النص القرآني في هذه النقطة بالذات.

ومنذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا كان القرآن الكريم يوجه أنظار الكفار إلى عجائب صنع الله في الكون، ويستنكر ألا يؤمنوا بها وهم يرونها مبثوثة في الوجود: أفلا يؤمنون، وكل ما حولهم في الكون يقود إلى الإيمان بالخالق المدبر الحكيم؟ ثم يمضي في عرض مشاهد الكون الهائلة: {وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِידَ بِهِمْ} [الأنبياء: ٣١]، فيقرر أن هذه

الجبال الرواسي تحفظ توازن الأرض فلا تميد بهم ولا تضطرب. وحفظ التوازن يتحقق في صور شتى: فقد يكون توازنا بين الضغط الخارجي على الأرض والضغط الداخلي في جوفها، وهو يختلف من بقعة إلى بقعة. وقد يكون بروز الجبال في موضع معادلا لانخفاض الأرض في موضع آخر. وعلى أية حال فهذا النص يثبت أن للجبال علاقة بتوازن الأرض واستقرارها. فلنترك للبحوث العلمية كشف الطريقة التي يتم بها هذا التوازن، فذلك مجالها الأصل، ولنكتف من النص القرآني الصادق باللمسة الوجدانية والتأمل الموحى، وبتتبع يد القدرة المبدعة المدبرة لهذا الكون الكبير.”

بل إنه، غفر الله له، لدى تفسيره لقوله تعالى من سورة ” الأنعام ”:

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَآفَىٰ تَوْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥]

يمضى في نقل فقرات كثيرة مما قاله بعض علماء الغرب عن استحالة المصادفة في عملية خلق الكون، وأن وراء هذا الكون إرادة قاصدة وقدرة مطلقة، وأن الأمر ليس عبثا. فما معنى ذلك؟ ولنقرأ: ” لقد عجزت كل محاولة لتفسير ظاهرة الحياة، على غير أساس أنها من خلق الله. ومنذ أن شرد الناس من الكنيسة في أوربا... وهم يحاولون تفسير نشأة الكون وتفسير نشأة الحياة بدون التجاء إلى الاعتراف بوجود الله، ولكن هذه المحاولات كلها فشلت جميعا، ولم تبق منها في القرن العشرين إلا مباحكات تدل على العناد، ولا تدل على الإخلاص! وأقوال بعض ” علمائهم ” الذين عجزوا عن تفسير وجود الحياة إلا بالاعتراف بالله تصور حقيقة موقف ” علمهم ” نفسه من هذه

القضية. ونحن نسوقها لمن لا يزالون عندنا يقتاتون على فتات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من موائد الأوربيين، عازفين عن هذا الدين، لأنه يثبت " الغيب " وهم " علميون! " لا غيبون! ". ونختار لهم هؤلاء العلماء من " أمريكا! " .

يقول " فرانك ألن " (ماجستير ودكتوراه من جامعة كورنل وأستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتوبا بكندا) في مقال " نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد؟ " من كتاب " الله يتجلى في عصر العلم " (ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان): " فإذا لم تكن الحياة قد نشأت بحكمة وتصميم سابق، فلا بد أن تكون قد نشأت عن طريق المصادفة. فما هي تلك المصادفة إذن حتى نتدبرها ونرى كيف تخلق الحياة؟ إن نظريات المصادفة والاحتمال لها الآن من الأسس الرياضية السليمة ما يجعلها تطبق على نطاق واسع حيثما انعدم الحكم الصحيح المطلق. وتضع هذه النظريات أمامنا الحكم الأقرب إلى الصواب، مع تقدير احتمال الخطأ في هذا الحكم. ولقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدما كبيرا حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر التي نقول إنها تحدث بالمصادفة، والتي لا نستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة أخرى، مثل قذف الزهر في لعبة النرد. وقد صرنا بفضل تقدم هذه الدراسات قادرين على التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة، وأن نحسب احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر في مدى معين من الزمان. ولننظر الآن إلى الدور الذي تستطيع أن تلعبه المصادفة في نشأة الحياة:

إن البروتينات من المركّبات الأساسية في جميع الخلايا الحية، وهي تتكون من خمسة عناصر هي الكربون والأدروجين والنيتروجين والأكسجين والكبريت. ويبلغ عدد الذرات في الجُزْيء الواحد ٤٠ ٠٠٠ ذرة. ولما كان عدد العناصر الكيميائية في الطبيعة ٩٢ عنصراً، موزعة كلها توزيعاً عشوائياً، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكون جُزْيئاً من جُزْئيات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطاً مستمراً لكي تولّف هذا الجزيء، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد. وقد قام العالم الرياضي السويسري تشارلز يوجين جاي بحساب هذه العوامل جميعاً، فوجد أن الفرصة لا تنتهى عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة ١ إلى 10×160 ، أي بنسبة ١ إلى رقم عشرة مضروباً في نفسه ١٦٠ مرة، وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات. وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات. ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدّرهما العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين. إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية، فكيف تتألف ذرات هذه الجزيئات؟ إنها إذا تألفت بطريقة أخرى غير التي تتألف بها تصير غير صالحة للحياة، بل تصير في بعض الأحيان سموماً. وقد حسب العالم الإنجليزي ج. ب. سيثر الطرق التي يمكن أن تتألف بها

الذرات في أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات، فوجد أن عددها يبلغ الملايين... وعلى ذلك فإنه من المحال عقلا أن تتألف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئا بروتينيا واحدا. ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيميائية عديمة الحياة، ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب الذي لا ندري من كنهه شيئا. إنه العقل اللانهائي، وهو الله وحده الذي استطاع أن يدرك ببالغ حكمته أن مثل هذا الجزيء البروتيني يصلح لأن يكون مستقرا للحياة، فبناه وصوّره وأغدق عليه سر الحياة".

ويقول إيرفنج وليام (دكتوراه من جامعة أيوى وإحصائي في وراثّة النباتات وأستاذ العلوم الطبيعية بجامعة ميتشجان) في مقال "المادية وحدها لا تكفي" من الكتاب نفسه: "إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية في صغرها والتي لا يحصيها عد، وهي التي تتكون منها جميع المواد. كما لا تستطيع العلوم أن تفسر لنا، بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها، كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكي تكون الحياة. ولا شك أن النظرية التي تدّعي أن جميع صور الحياة الراقية قد وصلت إلى حالتها الراهنة من الرقي بسبب حدوث بعض الطفرات العشوائية والتجمعات والهجائن، نقول: إن هذه النظرية لا يمكن الأخذ بها إلا عن طريق التسليم، فهي لا تقوم على أساس المنطق والإقناع!".

ويقول ألبرت ماكومب ونشتر (متخصص في علم الأحياء. دكتوراه من جامعة تكساس. أستاذ علم الأحياء بجامعة بايلور) في مقال "العلوم تدعم إيماني بالله" من الكتاب نفسه: "وقد اشتغلت بدراسة علم الأحياء،

وهو من الميادين العلمية الفسيحة التي تهتم بدراسة الحياة. وليس بين مخلوقات الله أروع من الأحياء التي تسكن هذا الكون. انظر إلى نبات برسيم ضئيل، وقد نما على أحد جوانب الطريق، فهل تستطيع أن تجد له نظيراً في روعته بين جميع ما صنعه الإنسان من تلك العدد والآلات الرائعة؟ إنه آله حية تقوم بصورة دائبة لا تنقطع آناء الليل وأطراف النهار بآلاف من التفاعلات الكيميائية والطبيعية. ويتم كل ذلك تحت سيطرة البروتوبلازم، وهو المادة التي تدخل في تركيب جميع الكائنات الحية. فمن أين جاءت هذه الآلة الحية المعقدة؟ إن الله لم يصنعها هكذا وحدها، ولكنه خلق الحياة وجعلها قادرة على صيانة نفسها، وعلى الاستمرار من جيل إلى جيل، مع الاحتفاظ بكل الخواص والمميزات التي تعيننا على التمييز بين نبات وآخر. إن دراسة التكاثر في الأحياء تعتبر أروع دراسات علم الأحياء وأكثرها إظهاراً لقدرة الله. إن الخلية التناسلية التي ينتج عنها النبات الجديد تبلغ من الصغر درجة كبرى بحيث يصعب مشاهدتها إلا باستخدام المجهر المكبر. ومن العجيب أن كل صفة من صفات النبات، كل عِرْق، وكل شُعيرة، وكل فرع على ساق، وكل جذر أو ورقة، يتم تكوينها تحت إشراف مهندسين قد بلغوا من دقة الحجم مبلغاً كبيراً، فاستطاعوا العيش داخل الخلية التي ينشأ منها النبات، تلك الفئة من المهندسين هي فئة الكروموسومات (ناقلات الوراثة). "فها هو ذا سيد قطب يستشهد بما يقوله بعض علماء الطبيعة، ومن الغربيين لا من المسلمين، في موضوع يتصل ببعض الآيات القرآنية، وهو ما يدل على أن الاستشهاد به، غفر الله له، على أنه معادٍ تماماً للاستعانة بالعلوم

الطبيعية وأشباهاها في فهم كلام الله هو استشهاد غير كامل، بل يصور جانباً واحداً فقط من جوانب موقفه من تلك القضية.

وكمثل الأستاذ سيد قطب نرى الشيخ المراغى، رغم إعلان كراهيته لجرّ الآية القرآنية إلى العلوم، أو العلوم إلى الآية، كى يتم تفسيرها تفسيراً علمياً يتفق مع نظريات العلم الحديث، وكذلك رغم تكريره هذا الإعلان كقوله مثلاً: "وُجِدَ الخلاف بين المسلمين فى العقائد والأحكام الفقهية، ووُجِدَ عندهم مرض آخر هو الغرور بالفلسفة وتأويل القرآن ليرجع إليها، وتأويله لبعض النظريات العلمية التى لم يقر قرارها، وذلك خطر عظيم على الكتاب، فإن للفلاسفة أوهاماً لا تزيد على هذيان المصاب بالحمى. والنظريات التى لم تستقر لا يصح أن يُرد إليها كتاب الله" (الشيخ محمد مصطفى المراغى/ الدروس الدينية لسنة ١٣٥٧هـ/ مطبعة الأزهر/ ١٩٣٩م/ ١١)، أقول: رغم هذا وذاك نراه يخالف فى تفسيره ما قاله ويستعين فيه بما قالت العلوم الطبيعية: فمن ذلك قوله فى تفسير الآية رقم ١٠ من سورة لقمان: { خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْأَرْضَ رَوْسَى أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ } [لقمان: ١٠]: "السموات مجموع ما نراه فى الفضاء فوقنا من سيارات ونجوم وسدائم، وهى مرتبة بعضها فوق بعض، تطوف دائرة فى الفضاء، كل شىء منها فى مكانه المقدر له بالناموس الإلهى ونظام الجاذبية، ولا يمكن أن يكون لها عمَد، والله هو ممسكها ومجريها إلى الأجل المقدر لها. فإذا قيل إن نظام الجاذبية، وهو الناموس الإلهى، قائم مقام العمَد ويُطلق عليه اسم "العمَد" جاز أن نقول: إن لها عمداً

غير منظورة. وإذا لاحظنا أنه لا يوجد شيء مادي تعتمد عليه وجب أن نقول: إنه لا عمَد لها. وأقدار الأجرام السماوية وأوزانها أقدار وأوزان لا عهد لأهل الأرض بها، والأرض نفسها إذا قيست بهذه الأجرام ليست إلا هباءة دقيقة في الفضاء... قرر الكتاب الكريم أن الأرض كانت جزءاً من السموات وانفصلت عنها، وقرر الكتاب الكريم أن الله {أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ} [فصلت: ١١]، وهذا الذي قرره الكتاب الكريم هو الذي دل عليه العلم. وقد قال العلماء إن حادثاً كونياً جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها، وإن هذه القطعة بعد أن مرت عليها أطوار تكسرت وصارت قطعاً، كل قطعة منها صارت سيّاراً من السيّارات، وهذه السيّارات هي بنت الشمس، والشمس هي المركز لكل هذه السيّارات. فليست الأرض هي مركز العالم كما ظنه الأقدمون، بل الشمس هي مركز هذه المجموعة، والشمس وتوابعها قوى صغيرة في العالم السماوي. وأين هي من الشُّعْرَى اليمانية التي قال الله سبحانه فيها: {وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى} [النجم: ٤٩] ؟ فهذا النجم قدرته على إشعاع الضوء تساوى قوة الشمس ٢٦ مرة، وقدرته على إشعاع الحرارة مثل قدرته على إشعاع الضوء. فلو فُرض أن الشُّعْرَى اليمانية حلّت محل الشمس يوماً من الأيام لانتَهت الحياة فجأة بغليان الأنهار والمحيطات والقارات الجليدية التي حول القطبين. وضوء الشُّعْرَى اليمانية يصل إلينا بعد ثمان سنوات، وضوء الشمس يصل إلينا بعد ثمان دقائق، فانظر إلى هذا البُعد السحيق. وليست الشُّعْرَى اليمانية أكبر نجم في السماء، فهناك بعض النجوم قدرتها تزيد على قدرة الشُّعْرَى أكثر من عشرة آلاف مرة. وعظمة السماء ليست في الشمس وتوابعها.

كلا، إن عظمتها في مدنها النجومية، وفي أقدارها وأوزانها وأضوائها وأبعادها على اختلاف أنواعها. وهناك نجم يسمى: " المجرة " أكبر من شمسنا بما يزيد عن ثلاثين مليوناً من المرات. وهناك السدائم، وهي قريبة من الخلق أول الأمر. ثم يقف علم الإنسان، والله تعالى وحده يعلم خلقه: {مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ} [الكهف: ٥١].

{وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ} [النمل: ١٥]، أى خلق الجبال فى الأرض لئلا تميد الأرض وتضطرب. وليبان هذا يمكن أن نقول باختصار: إن الأرض بعد انفصالها عن الشمس وعكوفها على الدوران حولها على بُعدٍ منها وصلت بعض موادها إلى حالة السيولة بعد أن كانت مواداً ملتهبة كالشمس، وتكونت عليها قشرة صلبة بعد تتابع انخفاض الحرارة أحاطت بما فى جوفها من المواد المنصهرة، ثم تتابعت البرودة على القشرة فتجعدت، وحدث من التجعد نتوءات وأغوار: فالجبال الأولى نتوء القشرة الصلبة التى غلقت الأرض. وهناك جبال جدت عن اشتداد الضغط فى الرواسب التى فى قاع البحر، وجبال نارية جدت من خروج الحمم النارية من وسط الأرض وتداخلها فى الطبقات حتى صارت كأوتاد مغروزة فيها. والجبال كلها تتحمل الضغوط الرسوبية على جدرانها وتوزعها وتغير اتجاهها وتكسر حدثها، وتساعد بذلك على بقاء الطبقة المفككة الصالحة للإنبات والتى يتغذى بواسطتها الحيوان والإنسان وتحفظها من أن تمور. فالجبال أولاً حبست النار فى جوف الأرض، وصيرت الأرض بعد ذلك صالحة للحياة. والجبال توزع ضغوط الطبقات، ثم بعد ذلك تكسر حدة العواصف والرياح، فهى حافظة للأرض

من الميدان الذي يجيء بأسباب من داخل الأرض، والذي يجيء بسبب العواصف والرياح... إلخ " (الشيخ محمد مصطفى المراغي/ حديث رمضان/ كتاب الهلال/ العدد ٣٢٨/ نوفمبر ١٩٧٠م/ ٦١ فصاعدا. وانظر كلامه في نفس الموضوع ص ١٦١ وما بعدها أيضا). فعلام يدل هذا؟ ألا يدل على أن تجاهل التقدم العلمي عند تفسير القرآن أمر صعب وغير مستحسن، وإلا فكيف نسي هذا المفسران الجليلان ما قالاه وانتفعا بمباحث العلوم الحديثة؟ والمهم ألا يفتنت المفسر العلمي على كتاب الله فيلويه عن وجهه، أو يقوله ما لم يقل، أو يهجم على ما ليس واضحا له ولا عقله مطمئن إليه، أو يعجل بشرحه على ما لم يتأكد بعد من أقوال العلماء واجتهاداتهم التي لا تزال في طور التحقق والتمحيص رغبة منه في الإتيان بشيء جديد لإبهار الناس وطلبا للشهرة وحسن السمعة.

وتبقى سخرية بعض المنتسبين إلى الإسلام من جهود المفسرين العلميين وقولهم عنهم إنهم إنما ينتظرون إلى أن يكتشف الغربيون شيئا جديدا في ميدان العلم فيهبّوا فقط ساعتئذ إلى تفسير آيات القرآن في ضوء تلك الاكتشافات. ثم يضيفون أن أولئك المفسرين لو كانوا على حق لكانوا قاموا هم أنفسهم بتلك الاكتشافات قبل الغربيين. وهذا اعتراض في غير محله، وإن كنا نوافق على أنه كسل من المسلمين وعارٌ عليهم أن يتخلفوا عن غيرهم من الشعوب المتقدمة. أما أنه اعتراض في غير محله فلأن مهمة المفسر ليست اكتشاف القوانين والحقائق العلمية، بل تفسير القرآن مستعينا بكل ما تطوله يده لذلك التفسير، ومنه تلك الحقائق والقوانين. والمهم، كما قلنا، ألا يعتسف التفسير فيحمل النصوص ما ليس فيها

ويقولها ما لا تقول. كذلك من الممكن أن يقال لهؤلاء الساخرين: ولماذا لا تسمّرون أنتم أيضا عن ساعد الجدّ وتنافسون الغربيين فى الاكتشافات والاختراعات؟ أم إن مهمتكم تنحصر فقط فى الاعتراض والتهمك؟ ثم هل يقول عاقل بأن أمر الاكتشاف والاختراع فى عصرنا هذا يمكن أن ينهض به الأفراد بعيدا عن المؤسسات الكبيرة التى تستطيع وحدها تمويل مثل تلك المشاريع؟ كذلك يجب على المسؤولين فى بلاد العرب والمسلمين أن يتخذوا من التفاسير العلمية للقرآن المجيد حافزا للدعوة إلى نهضة علمية حقيقية لا يكتفى فيها الدارسون باجتراح ما يقوله العلماء الغربيون، بل يبدعون ويكتشفون ويضيفون وتكون لهم إنجازاتهم هم أيضا. كما ينبغى ألا يترك المسؤولون البحوث العلمية بعد فراغ أصحابها منها لمصيرها المجهول الذى يتربص بها الآن، بل يعملون بكل ما يستطيعون على تحويلها إلى واقع. على أن يفهم المهتمون بالتفسير العلمى أن تناول الآيات القرآنية من هذه الوجهة ليست نهاية المطاف أو أن كل شيء سوف يكون "عالى العال" إذا أثبتنا أن القرآن لا يصادم العلم، إذ ليست هذه سوى الخطوة الأولى التى ينبغى أن تتلوها خطوات أخرى إن لم تكنه بأن نناطح من سبقونا وتفوقوا علينا فى ميدان العلم الطبيعى والرياضى والاكتشافات والاختراعات ونسامتهم على الأقل، إن لم نتجاوزهم مع الأيام، فنحن إذن لم نصنع شيئا.

وأيا ما يكن الأمر فما زال هذان الموقفان المتعارضان قائمين حتى الآن. وقد كتب الدكتور زغلول النجار مقالا فى هذا الموضوع فى "أهرام" الاثنين ١٨ / ٩ / ٢٠٠٦م بعنوان "ضوابط التفسير العلمى للقرآن

الكریم ” نبه فيه إلى عدة احتياطات ينبغي أن يلتزم بها من يتصدى لتفسير القرآن تفسيراً علمياً، إذ لا بد له أن يتعمق في اللغة والبلاغة وعلوم القرآن، وألا يجرى وراء النظريات العلمية التي لم تتحول إلى حقائق بعد. كما ينبغي أن يبتعد بوجه عام عن التفاصيل العلمية الدقيقة التي لا تخدم غرض التفسير العلمي كالمعادلات الرياضية المعقدة والرموز الكيميائية الدقيقة مثلاً. كذلك لا يصح له القول بأن هذا الذي توصل له هو معنى الآية، بل عليه التأكيد بأن هذا ليس سوى فهمه هو الذي يمكن أن يخطئ، ويمكن أن يصيب. وبالمثل عليه الابتعاد تماماً عن الغيبيات التي لا تدخل في إطار العلم البشري كذات الله والروح والملائكة والجن والبرزخ وما إلى ذلك. وهذا كلام معقول جد معقول، وكل جهد بشري عرضة لمغامسة الخطأ مهما اتخذ صاحبه من الاحتياطات ووجوه الحذر، فلا يصح اتخاذ احتمال وقوع المفسر العلمي في الخطأ تكأة لإغلاق بابيه تماماً، وإلا فلن نتقدم البشرية خطوة، لأنها معرضة في كل خطوة تخطوها إلى السقوط في الغلط كما قلنا، بل لا بد من التقدم والمغامرة ما دام السائر قد اتخذ كل ما يستطيع من احتياطات. وعلى الله قصد السبيل. أقول هذا رغم ما لاحظته من أن الدكتور النجار أحياناً ما يغلو ويحمل النص القرآني فوق طاقته ويسبغ عليه من المعنى ما لا تتقبله اللغة التي صيغ بها ولا السياق الذي ورد فيه. والمعروف أن كل متخصص في علم أو فن أو صناعة فإنه يتحمس لها تحمسا شديداً ويكاد يراها في كل شيء. وهذا أمر يوشك أن يكون فطرياً يجرى في العروق، ولولاه لهدمت القرائح وتبلدت، فإن التمرکز حول الذات وما يتصل بها

هو أحد الدوافع التى تبعث البشر على النشاط والعمل والإبداع، والمهم ألا تتجاوز تلك الحماسة حدودها المقبولة، وأن يقيم الإنسان من نفسه رقيباً على تجاوزاته، وإلا فهناك عين المجتمع التى لا تكف عن المراقبة والمراجعة والانتقاد شئنا أم أبينا. كذلك فكل بنى آدم خطاء كما يقول الرسول، فلا خوف إذن من العمل والتقدم إلى الأمام، فلن يكون ذلك نهاية العالم. وعلينا التحرك والعمل والإبداع، أما الوسوسة الزائدة قبل الإقدام على عمل شئ والانتهاء إلى ألا يتخذ الإنسان أية خطوة فى اتجاه الهدف خشية الخيبة والفشل فهو الشلل القاتل، والعياذ بالله.

وفى حدود ما أعلم فإن كتاب "الجواهر فى تفسير القرآن الكريم" للأستاذ طنطاوى جوهرى هو التفسير الوحيد من هذا النوع الذى يتناول القرآن كله آية آية. وهو كتاب كبير الحجم حتى ليستغرق خمسة وعشرين مجلداً كبيراً. ومن نظرتنا فى هذا التفسير يتضح لنا أن صاحبه لم يكن يملأ كتابه بكل شئ ما خلا التفسير كما شنع عليه بعض من لا يتفقهون معه، إذ هو يفسر الألفاظ القرآنية التى تحتاج إلى تفسير، ويستخلص العبر أو المقاصد من النص الإلهى، ويتحدث عن سبب نزول الآية وعن الناسخ والمنسوخ وغير ذلك مما يتعلق بالنص ويتناوله المفسرون الآخرون. ثم هو، فوق هذا، لا يترك فرصة للكلام عن تأخر المسلمين وتقصيرهم التام فى الارتقاء إلى المرتبة التى يصدق عليهم عندها الوصف بأنهم خير أمة أخرجت للناس إلا اهتبلها وبصّرهم بمستجدات العلوم والاكتشافات والاختراعات، وحثهم على بذل الجهد، وحذرهم بالمصير السيئ الذى ينتظرهم إن استمروا فى البلادة التى هم منغمسون

فيها، وهو ما تحقق وما زال يتحقق حتى الآن. فكيف بالله يلام الرجل على أن جعل تفسيره للقرآن حياً حاراً؟ ألا يصح التفسير إلا أن يكون عقلياً بارداً، ولا يتناول إلا مسائل الفقه وآيات الصفات مثلاً أو قضايا الماضي التي ولت ولا يهتم بحاضر المسلمين ولا بالمصائب التي تسقط على رؤوسهم تبعاً ولا يتعلمون منها أبداً، ولا يلفت انتباههم إلى الإثم الرهيب الذي يواقعونه دوماً حين يكتفون باجترار ما وصلت إليه أُمم الغرب من مقررات العلم دون أن ينشطوا للمشاركة فيه والخروج من دائرة التخلف الجهنمية التي تحاصرهم من فوقهم ومن تحتهم ومن يمين لهم وشمال وخلف وقدام؟ لقد تساءل الرجل بحق: "لماذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب الإسلامية في علم الفقه، وعلم الفقه ليس فيه في القرآن إلا آيات قلائل لا تصل مائة وخمسين آية؟ فلماذا كثر التأليف في علم الفقه، وقُلَّ جدًّا في علوم الكائنات التي لا تخلو منها سورة؟ بل هي تبلغ سبعمائة وخمسين آية صريحة، وهناك آيات أخرى دلالتها تقرب من الصراحة. فهل يجوز في عقل أو شرع أن يبرع المسلمون في علم آياته قليلة، ويجهلوا علمًا آياته كثيرة جدًّا؟ إن آباءنا برعوا في الفقه، فلنبرع نحن الآن في علم الكائنات، ولنقم به لترقى الأمة".

والآن فلنستمع إلى الحكم الذي أصدره د. محمد حسين الذهبي على تفسير الشيخ طنطاوى جوهرى. قال: "إنى، بعد أن قرأت الكثير من هذا التفسير، أستطيع أن أعطيك صورة واضحة عن منهج المؤلف وطريقته التي سلكها فيه. وذلك أن المؤلف رحمه الله يفسر الآيات القرآنية تفسيراً

لفظيا مختصرا لا يكاد يخرج عما في كتب التفسير المألوفة لنا والمتداولة بين أيدينا، ولكنه سرعان ما يخلص من هذا التفسير الذي يسميه: لفظيا، ويدخل في أبحاث علمية مستفيضة يسميها هو: "لطائف" أو "جواهر". هذه الأبحاث عبارة عن مجموعة كبيرة من أفكار علماء الشرق والغرب في العصر الحديث أتى بها المؤلف ليبين للمسلمين ولغير المسلمين أن القرآن الكريم قد سبق إلى هذه الأبحاث ونبّه على تلك العلوم قبل أن يصل إليها هؤلاء العلماء بقرون متطاولة. ثم إننا نجد المؤلف، رحمه الله، يضع لنا في تفسيره هذا كثيرا من صور النباتات والحيوانات ومناظر الطبيعة وتجارب العلوم بقصد أن يوضح للقارئ ما يقول توضيحا يجعل الحقيقة أمامه كالأمر المشاهد المحسوس. كذلك نجد المؤلف، رحمه الله، يستشهد أحيانا على ما يقول بما جاء في الإنجيل. واعتماده فيما ينقل على إنجيل "برنابا" لأنه، كما يرى، أصح الأنجيل، بل هو الإنجيل الوحيد الذي لم تصل إليه يد التحريف والتبديل كما قيل. وكثيرا ما نرى المؤلف، رحمه الله، يشرح بعض الحقائق الدينية بما جاء عن أفلاطون في "جمهوريته"، أو بما جاء عن إخوان الصفا في رسائلهم. وهو حين ينقلها يُبدي لنا رضاه عنها وتصديقه بها مع أنها تخالف الثابت عن رسول الله ﷺ. كما أنه يستخرج كثيرا من علوم القرآن بواسطة حساب الجُمَّل الذي لا تُصدّق أنه يوصل إلى حقيقة ثابتة، وإنما هي عدوى تسربت من اليهود إلى المسلمين فتسلّطت على عقول الكثير منهم. هذا، وإنّا لنجد المؤلف، رحمه الله، يُفسّر آيات القرآن تفسيراً علمياً يقوم على نظريات حديثة وعلوم جديدة لم يكن للعرب عهد بها من قبل.

ولست أرى هذا المسلك في التفسير إلا ضرباً من التكلف، إن لم يذهب بغرض القرآن فلا أقل من أن يذهب بجلاله وجماله.”

والعجيب أن د. محمد حسين الذهبي، رغم إقراره في بداية الاقتباس الذي نقلناه في الفقرة السابقة بأن تفسير ” الجواهر ” فيه ما في التفسيرات الأخرى من مباحث، وإن كان يزيد عليها كثرة الكلام في العلوم، فإنه يعود في نهاية المطاف فيحكم عليه بأن فيه كل شيء ما عدا التفسير. والحق أن هذا حكم ظالم، وإن كنت لا أقصد إلى القول بأن كل ما قاله الرجل أو اقتبسه من كلام علماء الطبيعة والرياضيات أو عن إخوان الصفا أو غيرهم هو كلام صحيح، أو أننا نتفق معه فيما قاله مثلاً عن الدجل المسمى ” تحضير الأرواح ” أو في لجوئه إلى حساب الجُمَّل وخرافاته لاستخراج أشياء في القرآن لا وجود لها إلا في خيالاته. لكن السؤال هو: أوليس في كل كتاب من كتب التفسير أخطاء؟ وهل هناك كتاب منها حاز رضا الناس والعلماء جميعاً؟ إن الرجل يجتهد، ولكل مجتهد نصيب وأجر إن شاء الله، والاجتهاد يعني أن صاحبه معرض للصواب والخطأ. أما قول الدكتور الذهبي إن نقل الشيخ طنطاوي كلام العلم الحديث في تفسيره يذهب ببهاء القرآن فلا نوافقه عليه، إذ متى كان القرآن يكره العلم ويتجهم للعلماء؟ أو سبب هذا أن هؤلاء العلماء غير مسلمين؟ ولكن متى كان للعلم وطن؟ إن الحقيقة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها، وما من كتاب سماوى حضّ على العلم وكرّم العلماء مثلما صنع القرآن. ولا ننس أن ما يتوصل إليه علماء الغرب الآن من علم إنما هو امتداد للعلم العربى، الذى هو بدوره امتداد وتصحيح واستدراك وإضافة

لما سبقه من العلوم التي كانت موجودة لدى الأمم السابقة... وهكذا. ثم إن القرآن المجيد لم ينزل لعرب المبعث وحدهم، ولا للعرب في كل العصور فقط، بل نزل للبشرية جميعا في كل عصرٍ ومصرٍ. ولقد قرأت منذ سنين طوال مقالا لرجاء النقاش يثنى على تفسير "الجواهر" وصاحبه ثناء عظيمًا. ولكني لا أذهب هذا المذهب أيضا، بل الذي أراه هو أن في الكتاب خيرا كثيرا، وفيه كذلك أخطاء، وقد تكون هي أيضا أخطاء كثيرة. ولكن كما قال النابغة أخو بني دُيَّان: "أى الرجال المهذب؟"

فمثلاً لا أرانى أجد بأسا بما كتبه صاحب "الجواهر" عندما تعرّض لقوله تعالى في الآية ٦١ من سورة "البقرة": {وَإِذْ قُلْتُمْ يَنْمُوتُونَ لَنْ نَحْيَا عَلَى طَعَامٍ وَاجِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقَلِهِمَا وَقِشَاطِهِمَا وَقُومِهِمَا وَعَدَسِهِمَا وَبَصَلِهِمَا} قَالَ لَبِذْلُوكَ الَّذِي هُوَ أَذْفَ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ { [البقرة: ٦١]... الآية "تحت عنوان: "الفوائد الطبية في هذه الآية"، إذ أخذ في بيان ما أثبتته الطب الحديث من نظريات طبية، ذكرا مناهج أطباء أوروبا في الطب، ثم قال: "أولست هذه المناهج هي التي نحا نحوها القرآن؟ أو ليس قوله { لَبِذْلُوكَ الَّذِي هُوَ أَذْفَ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ } رمزا لذلك؟ كأنه يقول: العيشة البدوية على المن والسلوى، وهما الطعامان الخفيفان اللذان لا مرض يتبعهما، مع الهواء النقي والحياة الحرة، أفضل من حياة شقية في المدن بأكل التوابل واللحم والإكثار من ألوان الطعام مع الذلة وجور الحكام والجبن وطمع الجيران من الممالك، فتختطفكم في حين غفلة وأنتم لا تشعرون. يمثل هذا تُفسَّر هذه الآيات. يمثل هذا فليفهم المسلمون كتاب الله."

وكذلك لا أستطيع أن أرى بأساً في كلامه التالى تعليقا على قوله تعالى فى الآية من سورة " طه " : {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} ٥ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى} ٦ طه : ٥-٦ : " قوله : {وَمَا بَيْنَهُمَا} دخل فى ذلك عوالم السحاب والكهرباء وجميع العالم المسمى : " الآثا العلوية " ، وهو من علوم الطبيعة قديما وحديثا. وقوله : {وَمَا تَحْتَ الثَّرَى} يشير لعلمين لم يُعرفا إلا فى زماننا، وهما علم طبقات الأرض المتقدم مرارا فى هذا التفسير، وعلم الآثار المتقدم بعضه فى سورة " يونس ". فالله هنا يقول : {وَمَا تَحْتَ الثَّرَى} ليحرص المسلمون على دراسة علوم المصريين التى تظهر الآن تحت الثرى .

كذلك هل ثمة من يخالف ما قاله الشيخ فى الفقرة التالية التى كتبها تعليقا على بعض الحروف المقطعة فى أول سورة " آل عمران " ؟ : " انظر، رعاك الله، تأمل. يقول الله: {الْمَ}، {طَسَ}، {حَمَ}... وهكذا يقول لنا: أيها الناس، إن الحروف الهجائية إليها تحلل الكلمات اللغوية، فما من لغة فى الأرض إلا وأرجعها أهلها إلى حروفها الأصلية، سواء أكانت اللغة العربية أم اللغات الأعجمية، شرقية وغربية. فلا صرف ولا إملاء ولا اشتقاق إلا بتحليل الكلمات إلى حروفها، ولا سبيل لتعليم لغة وفهمها إلا بتحليلها. وهذا هو القانون المسنون فى سائر العلوم والفنون. ولا جَرَمَ أن العلوم قسمان: لغوية وغير لغوية، فالعلوم اللغوية مقدّمة فى التعليم لأنها وسيلة إلى معرفة الحقائق العلمية من رياضية وطبيعية وإلهية. فإذا كانت العلوم التى هى آلة لغيرها لا تُعرف حقائقها إلا بتحليلها إلى أصولها، فكيف إذن تكون العلوم المقصودة لنتائجها المادية والمعنوية؟ فهى أولى

بالتحليل وأجدر بإرجاعها إلى أصولها الأولية التي لا تعرف الحساب إلا بمعرفة بسائط الأعداد، ولا الهندسة إلا بعد علم البسائط والمقدمات، ولا علوم الكيمياء إلا بمعرفة العناصر وتحليل المركبات إليها، فرجع الأمر إلى تحليل العلوم.”

لكننى فى ذات الوقت لا أوافق على ما يقوله عن تحضير الأرواح مثلاً، إذ نجده، عند تعرضه لقوله تعالى فى الآية ٦٧ وما بعدها من سورة البقرة: {وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً} [البقرة: ٦٧]... الآيات ”، يعتقد مبحثاً فى عجائب القرآن وغرائب، ذاكرًا ما انطوت عليه تلك الآيات من هذه العجائب والغرائب، مشيرًا أثناء ذلك إلى تحضير الأرواح، الذى يسميه للأسف: ”عِلْمًا“، وما هو بالعلم، فيقول: ”وأما علم تحضير الأرواح فإنه من هذه الآية استخرجه. إن هذه الآية تُنلَى، والمسلمون يؤمنون بها، حتى ظهر علم الأرواح بأمريكا أولاً، ثم بسائر أوروبا ثانيًا“. ثم يتحدث عن مبدأ ظهور هذا الأمر وانتشاره بين الأمم وفائدته... إلى أن يقول: ”ولما كانت السورة التى نحن بصددتها قد جاء فيها حياة للعُزَيْر بعد موته، وكذلك حماره، ومسألة الطير وإبراهيم الخليل، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الطاعون فماتوا ثم أحياهم، وعلم الله أننا نعجز عن ذلك، جعل قبل ذكر تلك الثلاثة فى السورة ما يرمز إلى استحضار الأرواح فى مسألة البقرة، كأنه يقول: إذا قرأتم ما جاء عن بنى إسرائيل فى إحياء الموتى فى هذه السورة عند أواخرها فلا تيأسوا من ذلك، فإنى قد بدأت بذكر استحضار الأرواح، فاستحضروها بطرقها المعروفة، واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون.

ولكن ليكن الْمُحَضَّرُ ذا قلب نَفَى خالص على قدم الأنبياء والمرسلين كالْعَزَّيْر وإبراهيم وموسى، فهؤلاء نَعْلُو نفوسهم أَرِيَتْهُم بالمعانية، وأنا أمرت نبيكم أن يَفْتَدَى بهم فقلت: {إِهْدِنَهُمْ أَمْتَدَةً} [الأنعام: ٩٠]. ذلك أنه لا علاقة هنالك بين ما نقوله الآية الكريمة وما يزعمه دَجَالُو تحضير الأرواح. ولا شك أن الشيخ قد انخدع بهذه المزاعم، إلا أنه لم يكن وحده من بين علماء المسلمين في ذلك الوقت الذى انخدع بها. وبالمثل لا يمكن الموافقة على ما يذكره أحيانا من خيالات يتحول بها من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح فيلنقى بروح البصيرة فيحدثها وتحدثه، وكثيرا ما يسميها: إلهاما أو نفحة ربانية وإشارة قدسية وإشارة رمزية، بل قد يختلط عليه الأمر فلا يدري عَمَّ كتب: أهو حلم أم حديث نفس أم إلهام؟ ومثل هذه الأشياء لا يمكن أن تُحَسَّب لصالحه أبدا. كذلك لا نرضى أبدا بتقليبه من شأن العلماء القدامى وتفسيرهم وتصويره لتفسيره على أنه هو وحده التفسير الصحيح. بيد أنه لا يصح، في ذات الوقت، أن نعامل كل ما قاله في تفسيره وكأنه من نفس هذه الطينة، إذ إن فيما قاله كثيرا من الخير بلا جدال.

وإذا كنا قد سقنا رأى دارس كبير كالـدكتور محمد حسين الذهبي في تفسير "الجواهر" فقد يكون من باب إقامة التوازن أن نسوق أيضا ما كتبه الدكتور زغلول النجار في ذلك الكتاب، إذ يقدم رؤية مغايرة. قال: "أما تفسير الشيخ طنطاوي جوهرى والمُعَنُونَ: "الجواهر في تفسير القرآن الكريم" فيعتبر أضخم تفسير ينهج النهج العلمي، إذ يقع في خمسة وعشرين جزءا كبارا حاول فيها الشيخ، رحمه الله، تفسير القرآن الكريم

تفسيرا يتجاوب مع روح العصر وما وصلت اليه المعارف الانسانية في مجال دراسات الكون وما فيه من أجرام سماوية، ومن عوالم الجمادات والأحياء، ومن الظواهر الكونية التي تصاحبها، والسنن الالهية التي تحكمها، ليبرهن للقاريء أن كتاب الله الخالد قد أحاط بالكون في تفصيل وبيان وايضاح غفل عنه كثير من السابقين، وأنه بحق ينطوي علي كل ما وصل وما سيصل إليه البشر من معارف. هذا، وقد نعى الشيخ الجوهري، رحمه الله، على علماء المسلمين إهمالهم للجانب العلمي في القرآن الكريم وتركيز جهودهم علي الجوانب البيانية والفقهية فقط بقوله: لماذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب في علم الفقه، وعلم الفقه ليس له في القرآن الا آيات قلائل لاتصل إلى مائة وخمسين آية؟ فلماذا كثر التأليف في علم الفقه، وقلَّ جدا في علوم الكائنات التي لا تكاد تخلو منها سورة؟ ولذا فإننا نجده في مطلع تفسيره يتوجه بنداء الي المسلمين يقول فيه: يا أمة الاسلام، آيات معدودات في الفرائض (يقصد آيات الميراث) اجتذبت فرعا من علم الرياضيات، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها؟... هذا زمان العلوم، وهذا زمان ظهور الاسلام... هذا زمان رقيته. يا ليت شعري لماذا لانعمل في آيات العلوم الكونية مافعله أبائنا في علوم الميراث؟ ثم يضيف أن نظام التعليم الإسلامي لابد من ارتقائه، فعلم البلاغة ليست هي نهاية علوم القرآن بل هي علوم لفظه، وما نكتبها اليوم (يقصد ما يكتبه في تفسيره)، علوم معناه".

ولم يكتف الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره بتتبع الآيات واستنتاج معانيها وفق ما ارتأه فيها من إشارات إلى مختلف الدراسات الحديثة، بل

إنه قد استعان في هذا التفسير الفريد من نوعه بكثير من صور النباتات والحيوانات والمظاهر الكونية والوسائل التجريبية، كما استخدم الآراء الفلسفية عند مختلف المدارس الفكرية، وكذلك الأرقام العددية التي ينظمها حساب الجمل المعروف. وقد اعتبر المفسرون من بني عصره ذلك المنهج العلمي في التفسير، كما اعتبر من قبل، جنوحا إلى الاستطراد في تأويل بعض آيات القرآن الكريم على غير مقاصدها التشريعية والإيمانية، استنادا إلى الحقيقة المسلمة أن القرآن لم يأت لكي ينشر بين الناس القوانين العلمية ومعادلاتها، ولا جداول المواد وخصائصها، ولا قوائم بأسماء الكائنات وصفاتها، وإنما هو في الأصل كتاب هداية، كتاب عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات، وهي ركائز الدين التي لا يستطيع الإنسان أن يضع لنفسه فيها ضوابط صحيحة. والقرآن العظيم حين يلفت نظر الإنسان إلى مختلف مظاهر هذا الوجود إنما يعرض لذلك من قبيل الاستدلال على قدرة الخالق العظيم وعلمه وحكمته وتدبيره، ومن قبيل إقامة الحجة البينة على الجاحدين من الكافرين والمشركين، ومن قبيل التأكيد على إحاطة القدرة الإلهية بالكون وبكل ما فيه وعلى حاجة الخلق في كل لحظة من لحظات الوجود إلى رحمة ذلك الخالق العظيم.

فهذا هو الشيخ محمد رشيد رضا، يرحمه الله، يكتب في مقدمة تفسيره المنار مانصه: "وقد زاد الفخر الرازي صارفا آخر عن القرآن هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة علي ما كانت عليه في عهده، كالهئية الفلكية اليونانية وغيرها، وقلده بعض المعاصرين (ويقصد الشيخ طنطاوي

جوهرى) بإيراد مثل هذا من علوم العصر وفنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية، فصولاً طويلة، بمناسبة كلمة مفردة كالسما أو الأرض، من علوم الفلك والنبات والحيوان، تصد القاريء عما أنزل الله لأجله القرآن.

وعلى الرغم من استنكار علماء التفسير لهذا المنهج العلمي قديماً وحديثاً، إلا أن عدداً كبيراً من العلماء المسلمين ظل مؤمناً بأن الإشارات الكونية في كتاب الله، أي الآيات المتعلقة ببعض أشياء هذا الكون على إجمالها وتأثيرها بين آيات الكتاب المجيد، تبقي بياناً من الله خالق الكون ومبدع الوجود، ومن ثم فهي حق مطلق، وصورة من صور الإعجاز في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وإن ذلك قد لا يتضح إلا للأسرخين في العلم من المتخصصين في مختلف مجالات العلوم البحتة والتطبيقية: كل في حقل تخصصه. وحتى هؤلاء يظل يتسع إدراكهم لذلك الإعجاز باتساع دائرة المعرفة الإنسانية جيلاً بعد جيل، وعصر بعد عصر، مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى: {إِنَّهُوَ الَّذِي يُزَكِّي الْعَالَمِينَ} [٨٧] وَلَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ. مصداقاً لقول رسول الله ﷺ في وصفه للقرآن الكريم بأنه لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد. ومن هنا كان واجب المتخصصين من المسلمين في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية في كل عصر وفي كل جيل أن تنفر منهم طائفة للتسلح بمستلزمات تفسير كتاب الله من إلمام بقدر كاف من علوم اللغة العربية وآدابها، ومن الحديث وعلومه، والفقه وأصوله، وعلم الكلام وقواعده، مع معرفة بعادات المجتمع العربي الأول، وإحاطة بأسباب النزول،

وبالمأثور في التفسير، وبالسيرة النبوية المطهرة، وباجتهاد أعلام السابقين من أئمة المفسرين، وغير ذلك من الشروط التي حددها علماء التفسير وأصوله، ثم تقوم تلك الطائفة على شرح آيات الكتاب الحكيم، كل فيما يخصه، حتى تستبين للناس جوانب من الإعجاز في كتاب الله لم يكن من السهل بيانها قبل عصر العلم الذي نعيشه، وحتى يتحقق قول الله تعالى في محكم كتابه: {لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} [الأنعام: ٦٧].

هذا، وأترك القارئ مع فهرس المجلد الأول الذي اقتطفت منه العناوين التالية، وتركت أضعافها كي يرى بنفسه الموضوعات التي يتناولها الشيخ في تفسيره: "خطبة الكتاب، وفيها دعوة المسلمين عامة إلى البحث في العلوم الكونية. تفسير سورة الفاتحة. عجائب الحيوانات في تفسير معنى الرحمة. عجائب النمل والنحل والعنكبوت في توضيح معنى الرحمة... دعوة المؤلف لجميع المسلمين من سنيين وشيعيين وزيديين وغيرهم أن يدرسوا النبات والطب والمعادن وجميع العالم العلوي والسفلي. ضرب المثل للعالم العلوي بامرأة جميلة وفتيات يدرن حولها أقل منها جمالا، وهكذا. العالم السفلي، عالم النبات، عالم الحيوان، علم التشريح... معنى {يَا لَئِمَّةٌ} إلخ. شمول الصراط المستقيم للعفة والشجاعة والحكمة والعدل، وهي أصول علم الأخلاق. أقسام النعم: المال، الأصحاب، الأهل، الأعوان، الصحة، العقل، الحكمة، وجوب الاحتفاء بالنافعين للأمة. حكاية سولون الحكيم اليوناني. "الفاتحة" أم القرآن... مقارنة "فاتحة الكتاب" بفواتح البلغاء وأصحاب المعلقات. ذكر فواتح

المعلقات السبعة مع شرحها وفواتح ثلاث قصائد أخرى وموازنتها بالفتحة وبأوائل السور... تقسيم سورة " البقرة " إلى بابين عظيمين: الأول غلب فيه التوحيد ومحاجة اليهود، والثاني غلب فيه الأحكام الشرعية، وفي كل منها عشرة مقاصد. تفسير {الْم ١} ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ {البقرة: ١-٢}. التفسير اللفظي لآيات: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ} [البقرة: ٦] إلخ. التفسير اللفظي لآيات: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ} [البقرة: ٨]... إلخ المقصد الثالث في قوله: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا} [البقرة: ١٧]... إلخ. التفسير اللفظي لهذا القسم. المقصد الرابع: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ} [البقرة: ٢١]... إلخ. التفسير اللفظي لهذا القسم. إيضاح وتفصيل. فصل آخر في هذه الحكم الكونية، وفيه تفصيل التشبيه الذي في هذه الآية على تشبيه ابن المعتز في قوله: " وساقٍ صبيح... إلخ ". بدائع العلم لمناسبة تفسير {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً} [البقرة: ٢٢]... العلم المنتشر في المدارس المصرية لا يهدى الطالب. تفصيل الكلام على الأنداد وعبادة الأصنام. من الأمم من مات عندها العظيم فعبدته. الصابئون عبدوا الملائكة فالكواكب فالأصنام.... الآلهة الهندية الثلاثة، وهم برهما وفشنو وسيفا، ومعناها الخالق والحافظ والمهلك. التثليث عند الفرس وقدماء اليونان. الأصنام عند العرب الذين نزل عليهم القرآن. جنة العارفين، وهي المعارف، وجنة البُلْه، وهي التي فيها المأكول والمشروب واللذات الحسية. ضرب الأمثال وأن منها ما هو ظاهر كقوله: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا} [البقرة: ١٧]... إلخ. ومنها ما يحتاج إلى تأمل مثل أوصاف

الآخرة وأحوالها. ضرب مثل يبين فيه اختلاف مشارب الناس بالفهم، فالمرأة الجميلة ينظر لها ابنها وأبوها وأخوها وزوجها كل ينظر خاص، وأربعة من العلماء يفسرون قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب: ٢١] بما يناسب معارفهم. في مسألة حرب الكفرة. فتوى علماء بخارى لأمرها بتحريم الحرب بالمدافع وضياع البلاد. المقصد الخـ _____ امس: {كَيْفَ لَكُمُورُكَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ} [البقرة: ٢٨]... إلخ، وكيف يقول الله: خلق لكم ما في الأرض جميعا، والغابات والمرجان في البحار وغيرها في يد الفرنجة؟ الكلام على السموات السبع. التفسير اللفظي لهذا المقصد. السموات السبع في الإنجيل. موافقته لآراء اليونان. كيفية خلق العالم في الآراء الحديثة. أبعاد السيارات الثمانية. السيارات العلوية والسيارات السفلية. النجوم الثابت وأن منها ما يصل نوره لنا من ألف سنة نورية. أقدار الكواكب وعدد نجومها وأن مجموعها ٢٢٤ مليونا من النجوم. علوم القدماء قاصرة في عالم السموات، وجمال الله وقدرته ظاهران في العلم الحديث... المقصد السادس: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ} [البقرة: ٣٠]... إلخ. التفسير اللفظي لهذا المقصد. بحث ضاف تحت عنوان "الإيضاح في الحكمة العلمية والعملية"، واشتمل قصة آدم على الحكمة العملية والعلمية... آراء أهل الديانات والحكماء في الملائكة، وهي خمسة، ثم رأي علماء الهند. بيان علم الأخلاق من قصة آدم وقابيل وهابيل، وهي ترجع لأحوال ثلاث: كبر إبليس وحرص آدم وحسد قابيل، والأخلاق المنحرفة متفرعة عليها... {مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ} [البقرة: ١٠٦]... إلخ. لم كان الناسخ والمنسوخ في القرآن؟

والجواب عليه بعالم النبات ونسخه بمختلف الفصول ونسخ الصناعات والأحوال، وحض المسلمين أن يجاروا أوروبا وأمريكا كبلاد الأرجنتين في رقي الزراعة بالآلات الحاصدة الحارثة الخازنة المذرية... إلخ، وكيف يحلبون بقرهم، وهكذا، وإلا هلك المسلمون وبادوا، وبما تقدم يكونون خير أمة أُخْرِجَتْ للناس، فخير الناس أعلمهم فيكون أنفع لهم، وأين ذلك اليوم؟ الناسخ والمنسوخ. الآيات الناسخة والآيات المنسوخة وأنها ٢١ آية. نَظُمَ في ذلك للشيخ السيوطي... الأمم الضعيفة تقلد الغالبة في أخلاقها وتقاليدها كما قلد بنو إسرائيل المصريين فعبدوا عجلهم فأمروا بذبح البقرة ليعلموا أنها لا تعبد. حكمة تخصيص الحجر بضربه العصا ليدل على أن الأحجار تنفجر منها المياه بسبب اختصاص الثلج بأنه يكبر إذا برد. فالجاهل يكتفي بعصا موسى، والعالم يعرف العصا الإلهية، ونبع العيون بعظم حجم الثلج، وعجائب السحاب والماء، وأن في هذه السورة عجائب من علم تحضير الأرواح في هذا المقام، وتحريم الربا وتحريم الخمر، والتنويم المغناطيسي، وأن الحرب الماضية كانت لرؤوس الأموال، وهكذا. قصة صموئيل والعجوز التي أحضرت روح صموئيل النبي وأخبرت طالوت بأنه سيقتل غدا، وعلم تحضير الأرواح وتاريخه في أمريكا وأوروبا وانتشاره السريع وأنه مقتضى قوله تعالى: {كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ} [البقرة: ٧٣]، فهذه هي آيات الله في ذلك. الروحانية في فرنسا وألمانيا وإيطاليا والبلجيك وأسبانيا والبرتغال، وخطاب خمسة عشر ألف أمريكي لمجلس النواب الأمريكي في علم تحضير الأرواح. الملايين الذين اتبعوا هذا المذهب من الفلاسفة

والأطباء وغيرهم... إيضاح آية {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ} [البقرة: ١٦٤]
ووصف الكواكب والشمس وعلاقتها مع الأرض والماء، والهواء
والأمطار والبحار، وأن العالم جسم واحد فيكون إلهه واحدا...".

* * *

التفكير النقدي

obeikandi.com

التفسير النفسى

للدكتور محمد عثمان نجاتى كتاب بعنوان " القرآن وعلم النفس " عمل على أن يجمع فى صفحاته كل ما استطاع التنبيه إليه من الحقائق النفسية التى وردت فى القرآن الكريم والاسترشاد بها فى تكوين صورة واضحة عن شخصية الإنسان وسلوكه، مما يمكن أن يمهّد الطريق إلى نشوء دراسات جديدة فى علم النفس تحاول أن تضع الأسس لنظريات جديدة فى الشخصية تتفق حقائقها ومفاهيمها مع الحقائق والمفاهيم التى وردت فى القرآن الكريم عن الإنسان.

وقد قسم المؤلف الكتاب إلى عدة فصول هى: دوافع السلوك فى القرآن، وتحدث فيه عن الدوافع الإنسانية للقيام بسلوك ما، وهى نوعان: نوع فسيولوجى يتمثل فى دافع حفظ الذات، ودافع بقاء النوع الذى يتضمن الدافع الجنىسى، ودافع الأمومة. وإلى جانب الدوافع الفسيولوجية لدينا كذلك الدوافع النفسية والروحية، وتشمل دوافع التملك والعُدوان والتنافس والتدين، والدوافع اللاشعورية. وهناك أيضا الصراع بين الدوافع والسيطرة عليها وانحرافها. أما الفصل الثانى فيتعلق بالانفعالات فى القرآن، وتطرق فيه المؤلف إلى بعض الانفعالات التى ذكرها القرآن فى وصف الإنسان: وهى الخوف والغضب والحب: حب الذات، وحب الناس، والحب الجنىسى، والحب الأبوى، وحب الرسول ﷺ، إلى جانب الفرح والكره والغيرة والحسد والحزن والندم... كما تطرق أيضا إلى

التغيرات البدنية المصاحبة للانفعالات، وكيفية السيطرة عليها. ثم يأتي الفصل الثالث، وهو عن الإدراك الحسى في القرآن، وتحدث فيه المؤلف عن الحواس في القرآن الكريم والحواس الجلدية، والإدراك الحسى الخارج عن نطاق الحواس، والخداع البصرى وتأثير الدوافع والقيم في الانتباه والإدراك الحسى. ويدور الفصل الرابع على التفكير فى القرآن، وتعرض فيه المؤلف إلى خطوات التفكير فى حل المشكلات وأخطاء التفكير ذاته، ومنها التمسك بالأفكار القديمة، وعدم كفاية البيانات، والتحيز الانفعالى والعاطفى. ثم نبلغ الفصل الخامس، وهو عن التعلم فى القرآن، وتحدث فيه المؤلف عن مصادر العلم، وتعلم اللغة، وتعلم إرادة الاختيار واتخاذ القرار والتقليد والتجربة العلمية والمحاولة والخطأ والتفكير، وطرق التعلم فى القرآن، ودوافع التعلم كما عرضها كتاب الله الكريم، واستعانتها فى إثارتها بالقصص أو بالترغيب والترهيب أو بالأحداث المهمة. الفصل السادس: العلم الدنى فى القرآن، ويتناول الإلهام والأحلام والرؤى. وفى النهاية نصل إلى الفصل السابع، وموضوعه التذكر والنسيان فى القرآن، والنسيان والشيطان، والصلاة والزكاة والحج، والصبر والذكر والتوبة.

ولكى نزيد القارئ بيانا بطبيعة ذلك الكتاب وقيمته ومحتواه يحسن أن نتركه وجها لوجه مع مقدمة طبعته الثانية التى يقول فيها المؤلف: " إن القرآن الكريم كتاب دين وهداية أنزله الله سبحانه وتعالى على النبي محمد صلوات الله عليه وسلامه للناس كافة، يخاطب فيه عقل الإنسان ووجدانه، ويعلمه عقيدة التوحيد، ويذكىه بالعبادات، ويهديه إلى ما فيه خيره

وصلاحه في حياته الفردية والاجتماعية، ويرشده إلى الطريق الأمثل لتحقيق ق ذاته

ونمو شخصيته وترقي نفسه في مدارج الكمال الإنساني حتى يستطيع أن يحقق لنفسه السعادة في الدنيا والآخرة: { هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ } [الحاقة: ٢٠]، { تَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } [يونس: ٥٧]، { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِّلْمُسْلِمِينَ } [النحل: ٨٩]، { كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ مِّمْلِكُمْ } [البقرة: ١٢٩]، { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } [الجمعة: ٢].

وقد حث القرآن الكريم الناس على السير في الأرض وملاحظة ما في الكون من مخلوقات، والنظر والتفكير في السماوات والأرض وما فيها من خلق الله حتى يستطيعوا أن يستدلوا مما يرونه من بديع الصنع والخلق على وجود المبدع الخالق سبحانه وتعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ} [العنكبوت: ٢٠]، {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ} [الأعراف: ١٨٥]، {قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} [يونس: ١٠١]. وقد عني القرآن الكريم عناية كبيرة بحث الناس على التعلم وتحصيل العلم. ولا أدل على ذلك من أن أول آية نزلت من القرآن الكريم كانت تدعو إلى القراءة والتعلم، وتشيد بشأن القلم، وهو الأداة التي علم بها الله سبحانه وتعالى الإنسان الكتابة، وعلمه ما لم يكن يعلم من

العلوم: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥} [العلق: ١ - ٥].

وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بالقلم أداة الكتابة تكريماً لشأن القلم والكتابة، وتنوياً بفضلها في عملية التعلم وتحصيل العلم: {تَوَالَّفَ الْقَوْمَ مَا يَنْطُرُونَ ۝١} [القلم: ١]. وقد أشاد القرآن الكريم بفضل العلم وكرم العلماء ورفع من شأنهم، ووضع العلم في مرتبة عالية كمرتبة الإيمان: {يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [المجادلة: ١١]، {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ لِكُنْتُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٥٦} [الروم: ٥٦].

ولا أدل على تكريم القرآن للعلم والعلماء من ذكره " للذين أوتوا العلم " قبل " الذين أوتوا الإيمان " في الآية السابقة، ومن ذكره أيضاً " لأولي العلم " بعد

" الملائكة " في الإقرار بوحداية الله تعالى وبجلته وقدرته وحكمته في الآية التالية: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١٨} [إل عمران: ١٨]. ومن أدلة تكريم الله تعالى للعلم وإشادته بفضل أنه جل شأنه طلب من النبي صلوات الله عليه وسلامه أن يدعو بالاستزادة من العلم: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه: ١١٤]. فالعلم والحكمة نعمتان من نعم الله العظيمة على الإنسان يخص بهما من يشاء من عباده المؤمنين الصالحين: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۝١٢٩} [البقرة: ٢٦٩].

وكانت نعمة العلم والحكمة من أهم النعم التي أنعم الله تعالى بها

على أصفائه من الأنبياء والمرسلين كما أشارت إلى ذلك كثير من آيات القرآن الكريم. وحث القرآن الكريم الإنسان أيضا على التفكير في نفسه، وفي عجب خلقه ودقة تكوينه. وهو بذلك يدفع الناس إلى دراسة النفس ومعرفة أسرارها، فمعرفة النفس تؤدي إلى معرفة الله سبحانه وتعالى: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُتَوَقِّينَ} (٢٠) {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} (٢١) [الذاريات: ٢٠ - ٢١]، {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى} [الروم: ٨]، {سَرُّهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت: ٥٣]، {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ} (٥) {خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ} (٦) {يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} (٧) [الطارق: ٥ - ٧].

وفى هذا المعنى يقال: "من عرف نفسه فقد عرف ربه"، ويقال أيضا أَعْرِفْكُمْ بنفسه أَعْرِفْكُمْ بربه". وفضلا عن ذلك فإن معرفة الإنسان لنفسه تساعد على ضبط أهوائها ووقايتها من الغواية والانحراف وتوجيهها إلى طريق الإيمان والعمل الصالح والسلوك السليم، مما يهيئ للإنسان الحياة الآمنة المطمئنة، ويحقق له السعادة في الدنيا والآخرة. وقد تضمن القرآن الكريم كثيرا من الآيات التي تعرضت لطبيعة تكوين الإنسان، ووصفت أحوال النفس المختلفة، وبينت أسباب انحرافها ومرضها، وطرق تهذيبها وتربيتها وعلاجها. وذلك أمر طبيعى في كتاب أنزله الله تعالى لهداية الإنسان وتوجيهه وتربيته وتعليمه. وكانت هذه الآيات الواردة في القرآن الكريم عن النفس بمثابة المعالم التي يسترشد بها الإنسان في فهم نفسه وخصالها المختلفة، وفي توجيهه إلى الطريق السليم في تهذيبها وتربيتها. ومن الممكن أن نسترشد بما ورد في القرآن

الكريم من حقائق عن الإنسان، وصفاته وأحواله النفسية في تكوين صورة صحيحة عن شخصية الإنسان، وعن الدوافع الأساسية التي تحرك سلوكه، وعن العوامل الرئيسية لتوافق شخصيته وتكاملها، ولتحقيق صحته النفسية، مما يكون من شأنه أن يمهد الطريق لقيام " علم للنفس " تتفق نتائجه وحقائقه مع الحقائق الصحيحة عن الإنسان التي نستمدّها من كلام الله سبحانه وتعالى خالق الإنسان، وهو الأعلم بطبيعته وأسرار تكوينه: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [المائدة: ١٤].

وليس هذا الكتاب الذي نقدمه الآن إلا محاولة لجمع الحقائق والمفاهيم النفسية التي وردت في القرآن الكريم والاسترشاد بها في تكوين صورة واضحة عن شخصية الإنسان وسلوكه، مما يمكن أن يمهد الطريق إلى نشوء دراسات جديدة في علم النفس تحاول أن تضع الأسس لنظريات جديدة في الشخصية تتفق حقائقها ومفاهيمها مع الحقائق والمفاهيم التي وردت في القرآن الكريم عن الإنسان. إن علماء النفس المحدثين، بتبنيهم مناهج البحث في العلوم الطبيعية، قد حصروا أنفسهم في دراسة الظواهر النفسية التي يمكن فقط ملاحظتها ودراستها دراسة موضوعية، وتجنبوا البحث في كثير من الظواهر النفسية الهامة التي يصعب إخضاعها للملاحظة أو البحث التجريبي. وبذلك أبعدوا النفس ذاتها من دراساتهم لأن النفس شيء لا يمكن ملاحظته، وقصروا دراساتهم على السلوك الذي يمكن ملاحظته وقياسه. وقد نادى بعضهم بتغيير اسم " علم النفس " وتسميته " علم السلوك "، لأن علم النفس الحديث يدرس السلوك ولا يدرس النفس. وكان من نتيجة هذا الاتجاه في تطبيق مناهج العلوم الطبيعية في بحوث علم النفس أن سادت في

دراساته وجهة النظر المادية التي ترجع جميع الظواهر النفسية إلى العمليات الفسيولوجية، والتي تنظر إلى الإنسان كنظرتهم إلى الحيوان، بل إنهم جعلوا من دراستهم لسلوك الحيوان المدخل الطبيعي لفهم سلوك الإنسان، مغفلين في كثير من الأحيان الاختلاف الكبير في طبيعة تكوين الإنسان الذي يتميز عن الحيوان بالروح، وهو أمر يغفلونه في دراساتهم إغفالاً يكاد يكون تاماً.

وقد أدى ذلك إلى كثرة بحوث علم النفس التي تتناول كثيراً من أنواع السلوك الإنساني السطحي وغير الهام، وإغفال دراسة كثير من الظواهر السلوكية الهامة في الإنسان التي تتناول النواحي الدينية والروحية والقيم الإنسانية العليا والحب في أسمى صوره الإنسانية بعيداً عن النواحي الجنسية التي تغلب على دراسة علماء النفس المحدثين للحب، وأثر العبادات في سلوك الإنسان، والصراع النفسي بين الدوافع البدنية والدوافع الروحية، وتوافق الشخصية عن طريق تحقيق التوازن بين الجانب المادي والجانب الروحي في الإنسان، وغير ذلك من الموضوعات التي سوف نتناولها في هذا الكتاب. ولقد لاحظ بعض علماء النفس المحدثين قصور علم النفس الحديث في دراسة النواحي الروحية في الإنسان. فقال إريك فروم (Erich fromm) مثلاً، وهو محلل نفسي معاصر، إن اهتمام علم النفس الحديث "ينصب في أغلب الأحيان على مشكلات تافهة تتمشى مع نهج علمي مزعوم، وذلك بدلاً من أن يضع مناهج جديدة لدراسة مشكلات الإنسان الهامة. وهكذا أصبح علم النفس يفتقر إلى موضوعه الرئيسي، وهو الروح. وكان معنيًا بالميكانيزمات وتكوينات ردود الأفعال والغرائز دون أن يُعنى بالظواهر الأساسية المميزة أشد التميز للإنسان، كالحب والعقل والشعور

والقيم". وقد فطن في السنوات الأخيرة عدد قليل جدا من علماء النفس إلى أهمية دراسة هذه الناحية الروحية من الإنسان، وبدأت محاولات لدراسة بعض الظواهر الروحية مثل التخاطر والاستشفاف، غير أن هذه المحاولات لا زالت في بدايتها، ولم تصل بعد إلى نتائج دقيقة يمكن ضمها باطمئنان إلى مجموعة معلوماتنا الدقيقة عن الإنسان. ولا شك أننا في حاجة إلى مزيد من الاهتمام بدراسة تراثنا الإسلامي، مبتدئين بالقرآن الكريم والحديث الشريف، ثم متتبعين تطور التفكير في الدراسات النفسية لدى الفلاسفة والمفكرين المسلمين بهدف معرفة المفاهيم النفسية الإسلامية فهما صحيحا يكون هاديا لنا في دراساتنا النفسية، وعونا لنا في تكوين نظرياتنا الخاصة عن الشخصية الإنسانية بحيث نجمع بين دقة البحث العلمي الأصيل والحقائق التي وردت في القرآن الكريم عن الإنسان، وهي حقائق يقينية لأنها صدرت عن الله تعالى خالق الإنسان: {لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: ٤٢].

ويوجد كتاب آخر بنفس عنوان الكتاب السابق الذي ألفه الدكتور نجاتي، وهو "القرآن وعلم النفس" للدكتور عبد العلى الجسماني. كما ألف الدكتور مفتاح محمد عبد العزيز كتابا ثالثا بذات العنوان، وألف الدكتور حسان شمي باشا كتابا حول جانب نفسى مهم هو "النوم والأرق والأحلام بين الطب والقرآن". وبالإضافة إلى ما ذكر هناك دراسات وبحوث متناثرة في الدوريات المختلفة لعدد من المتخصصين في مجال الدراسات النفسية منها ما كتبه بعض الباحثين عن الإعجاز السلوكي في القرآن الكريم وما يتعلق بذلك من التوجيهات الإلهية الخاصة بتعديل

السلوك الإنسانى، وكذلك الإعجاز القرآنى فى مجال العلاج المعرفى
السلوكى... إلخ.

* * *